Sana'a University Journal of Human Sciences مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية
Vol. 5 | No. 1 | Page 354 – 393 |2026 | https://journals.su.edu.ye/index.php/jhs
ISSN : 2958-8677

Motives and Events of the Massacre of Yemeni Pilgrims in Tanuma and Sadwan by Ibn Saud's Forces in 1923

Hammood Abdullah Yahya Al-Ahnoomi [1,*]

[1] Faculty of Education - Sana'a University, Sana'a, Yemen..

***Corresponding author:** *h.alahnoumi@su.edu.ye*

Keywords

1. Tanomah Massacre
2. Yemeni Pilgrims
3. Abdulaziz Ibn Saud
4. Asir
5. Yemen
6. Wahhabism

Abstract:

This study examines and analyzes one of the most overlooked atrocities in the modern history of the Arabian Peninsula: the massacre of Yemeni pilgrims in Tanomah and Sadwan in 1923, carried out by the "Ikhwan" forces loyal to Abdulaziz Ibn Saud, with direct British complicity or supportive silence, amid an intense political and military struggle in southern Arabia. The research aims to uncover the direct and underlying causes that led to this massacre, identify the actual actors responsible for it, and dismantle the official Saudi narrative that has attempted to obscure the truth for nearly a century.

The study employs a composite historical-analytical methodology that integrates contemporary historical sources and documents, rare manuscripts, oral testimonies from survivors and descendants of the victims, and modern scholarly studies.

The research concludes with several key findings, most notably: that the massacre was neither an accidental incident nor an isolated act by individual fighters, but rather part of a deliberate political strategy intended to demonstrate loyalty to Britain and expand Najdi influence in Yemen and 'Asir; that Ibn Saud's forces carried out systematic mass killings targeting unarmed pilgrims en route to perform Hajj; and that attempts to exonerate Ibn Saud by attributing responsibility solely to the Ikhwan lack historical foundation.

The study further reveals the extent of deliberate concealment of the event in modern Saudi historiography. It recommends incorporating the massacre into Yemeni educational curricula, establishing a national center dedicated to its documentation, and encouraging academic research to reconstruct this critical period in the modern history of Yemen and the Arabian Peninsula

Sana'a University Journal of Human Sciences
مجلة جامعة صنعاء للعلوم الإنسانية
Vol. 5 | No. 1 | Page 255 – 393 | 2026
https://journals.su.edu.ye/index.php/jhs
ISSN : 2958-8677

دوافع ووقائع مجزرة حجاج اليمن في تنومة وسدوان على يد قوات ابن سعود عام 1923م

حمود عبدالله يحيى الأهنومي [1]*، ,

[1] كلية التربية - جامعة صنعاء ، صنعاء ، اليمن. .

*المؤلف: h.alahnoumi@su.edu.ye

الكلمات المفتاحية

١. مجزرة تنومة
٢. - حجاج اليمن
٣. عبدالعزيز بن سعود
٤. عسير
٥. اليمن
٦. الوهابية

الملخص:

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل واحدة من أكثر الجرائم المنسية في تاريخ الجزيرة العربية الحديث، وهي مجزرة حُجّاج اليمن في تنومة وسَدْوان عام 1923م التي ارتكبتها قوات "الإخوان" التابعة لعبدالعزيز بن سعود بتواطؤ مباشر أو صمت داعم من بريطانيا، وفي سياق صراع سياسي وعسكري محتدم في جنوب الجزيرة. يهدف البحث إلى كشف الأسباب المباشرة وغير المباشرة التي قادت إلى هذه المجزرة، وتحديد المسؤوليات الفعلية، وتفكيك الرواية السعودية الرسمية التي حاولت حجب الحقيقة لأكثر من قرن. وقد اعتمد الباحث على منهج تاريخي تحليلي مركّب يجمع بين: الوثائق والمصادر التاريخية المعاصرة، والمخطوطات النادرة، والروايات الشفوية للناجين وأحفاد الشهداء، والدراسات الحديثة.

خلصت الدراسة إلى عدد من النتائج الرئيسة، من أبرزها: أن المجزرة لم تكن حادثًا عارضًا أو تجاوزًا فرديًا، بل جاءت ضمن سياق سياسي مقصود لإثبات الولاء لبريطانيا وتوسيع النفوذ النجدي في اليمن وعسير، وأنّ قوات ابن سعود نفّذت عمليات قتل جماعي ممنهج استهدفت الحجاج العُزّل أثناء سفرهم لفريضة الحج؛ وأنّ محاولات التبرير أو تحميل "الإخوان" وحدهم المسؤولية تفتقر إلى الأساس التاريخي؛ كما بيّنت الدراسة حجم التعتيم المتعمد على الحدث في الخطاب السعودي المعاصر. وتوصي الدراسة بضرورة إدراج المجزرة في المناهج التعليمية اليمنية، وإنشاء مركز وطني لتوثيقها، وتشجيع البحوث الأكاديمية لإعادة كتابة تاريخ هذه المرحلة الحساسة من تاريخ اليمن والجزيرة العربية.

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

في الساعات الأولى من السادس والعشرين من مارس 2015م شهدت العاصمة صنعاء سلسلة غارات مكثفة دشّنت الإعلان الرسمي للعدوان السعودي الإماراتي الأمريكي على اليمن، وما تلاه من مجازر يومية وحملات تحريض طائفية ممنهجة استهدفت البنية الاجتماعية والهوية الدينية لليمنيين. وقد أعاد هذا المشهد إلى ذاكرة الباحث نمطًا تاريخيًا متكررًا من الممارسات العدوانية، يتصدرها ما عُرف بمجزرة تنومة وساق الغراب عام 1923م، التي تُعد واحدة من أبشع الجرائم المرتكبة بحق الحجاج اليمنيين في العصر الحديث.

لقد كشفت الأيام الأولى للعدوان أن هذه المجزرة – على فظاعتها ودلالاتها السياسية والدينية – تكاد تكون غائبة عن الوعي العام اليمني، نتيجة تراكم طويل من التعتيم الثقافي والإعلامي والأكاديمي، بما يعكس حجم النفوذ السعودي داخل مؤسسات الدولة اليمنية لعقود. ومع تزايد الحاجة إلى تفسير الجذور التاريخية للعدوان القائم، برزت ضرورة إعادة دراسة هذه الحادثة وإحيائها في الذاكرة الوطنية، ولا سيما أن الباحث كان قد اطّلع عليها مبكرًا منذ طفولته من خلال روايات والده المهتم بالتاريخ.

وقد واجهت عملية جمع المادة العلمية تحديات كبيرة خلال السنوات 2015–2016م، بفعل ظروف الحرب والقصف المتواصل وانقطاع الخدمات الأساسية وإغلاق المكتبات العامة. ومع ذلك، تَجمَّعت لدى الباحث مؤشرات واضحة تؤكد أن مجزرة تنومة ليست مجرد واقعة تاريخية منسية، بل قضية موؤودة أُحكمت حولها دوائر الحجب المتعمد، وأن استعادتها تشكل جزءًا من بناء وعي وطني قادر على فهم طبيعة التهديدات الراهنة ومصادرها التاريخية.

أسباب اختيار البحث:

1–وجود تشابه بنيوي بين ممارسات العدوان عام 2015م ومجزرة تنومة 1923م بما يثبت امتداد السياسة العدوانية عبر الزمن.

2–الغياب شبه التام للمجزرة في الوعي اليمني، وعدم تناولها في المناهج والبحوث والدراسات التاريخية.

3–أهمية المجزرة في تفسير العلاقات اليمنية–السعودية وفهم البنية العقائدية والسياسية للعدوان الحالي.

4–الطمس المؤسسي المتعمَّد للحدث بسبب النفوذ السعودي الواسع داخل الحقلين الأكاديمي والثقافي في اليمن.

5–الدافع العلمي والشخصي لدى الباحث المبني على معرفة مبكرة بالمجزرة ورغبة في توثيقها علميًا.

6–الحاجة إلى تصحيح الذاكرة الوطنية وإعادة الاعتبار لشهداء المجزرة في سياق مواجهة المشروع الوهابي.

7–توفر بيئة بحثية أكثر انفتاحًا بعد ثورة 21 سبتمبر بما يسمح بدراسة قضايا تاريخية كانت محظورة سابقًا.

مشكلة البحث

تتمثّل مشكلة هذا البحث في أن مجزرة حجاج اليمن في تنومة وسدوان سنة 1341هـ/1923م – على فظاعتها وضخامة ضحاياها – ظلّت لعقودٍ طويلة قضيةً «موءودة» في الوعي اليمني والعربي، جرى التعتيم عليها سياسيًّا وتربويًّا وإعلاميًّا، كما أحاطت بها رواياتٌ متعارضة؛ نجديّة تبريرية تُلصِق المسؤولية بطرفٍ ثالث، وروايات يمنية ووثائق وشهادات تشير إلى سبق الإصرار والتخطيط، وتلمِّح إلى دورٍ

بريطاني، وإلى مسؤولية مباشرة لعبدالعزيز بن سعود وجيش الإخوان الوهابيين.

هذا الغموض في الدوافع الحقيقية للمجزرة (السياسية والعقدية والمادية والعسكرية)، واضطراب الصورة عن طريقة تنفيذها، وحجم ضحاياها، وطبيعة الموقف الرسمي اليمني والسعودي منها، وحدود مسؤولية ابن سعود عنها، إلى جانب ما ترتّب عليها من آثار على مسار العلاقات اليمنية–السعودية وعلى تشكيل الوعي اليمني بخطر الفكر الوهابي، كلُّ ذلك يطرح مجموعةً من التساؤلات التي يسعى هذا البحث للإجابة عنها توثيقًا وتحليلًا ونقدًا.

وتتمثل أسئلة هذا البحث في سؤال رئيس، هو:

– ما الدوافع السياسية والعقدية والعسكرية التي أدّت إلى وقوع مجزرة حجاج اليمن في تنومة وسدوان سنة 1923م، وكيف جرت وقائعها، وما حدود مسؤولية عبدالعزيز بن سعود عنها؟

ويتفرع عن السؤال الرئيس عدد من الأسئلة الفرعية، وهي:

1–ما السياق السياسي والعسكري الذي سبق وقوع المجزرة في اليمن ونجد وعسير، وما موقع الأطراف الفاعلة فيه؟

2–متى وأين وقعت المجزرة، وكيف جرت وقائعها ميدانيًا وفق الروايات اليمنية وشهادات الناجين والوثائق المعاصرة؟ وما التقدير الأقرب لعدد الضحايا؟

3–ما الدوافع السياسية المباشرة وغير المباشرة للمجزرة، وما دور الصراع على عسير والمخلاف السليماني فيها؟

4–ما أثر العقيدة الوهابية التكفيرية في استباحة دماء الحجاج اليمنيين وأموالهم وتبرير ذلك؟

5–إلى أي مدى تُعد الرواية النجدية الرسمية للمجزرة رواية متعمِّدة للتضليل؟ وكيف يمكن تفنيدها من خلال النصوص والشهادات الوثائقية؟

6–ما حدود مسؤولية عبدالعزيز بن سعود عن المجزرة؟

أهمـيـة البحث

تبرز أهمية هذا البحث من خلال النقاط التالية:

1–هو أول بحث أكاديمي مستقل – بحسب الاطلاع – يوثّق مجزرة تنومة وسدوان التي طُمست لعقود، ويفتح الباب لدراسات أعمق حولها.

2–يتضمن توثيق شهادات وروايات نادرة كانت شفوية ومهددة بالاندثار، ويحفظ ذاكرة وطنية كانت في طريقها للضياع.

3–يصحح السردية التاريخية ويكشف حقائق ونتائج جديدة تخالف الرواية السائدة.

4–يعرف الأجيال اليمنية بالمجزرة وبأبعادها السياسية والعقدية، وتعزيز الوعي الوطني.

5–يفضح المشروع الوهابي السعودي وأدواته وامتداداته في الداخل اليمني، وبيان جذور العنف التكفيري.

6–يبرز الصلة بين مجزرة تنومة والحركات التكفيرية المعاصرة (داعش وأخواتها) ويربطها بمدرسة الوهابية النجدية.

7–يعزز الاستقلال الثقافي والتربوي إلى جانب الاستقلال السياسي والعسكري، ويكشف عن الدور الاستعماري البريطاني في خلفيات المجزرة.

8–يسهم في بناء وعي استراتيجي يمني يفهم طبيعة الصراع اليمني–السعودي ويستوعب جذوره التاريخية.

أهداف البحث

يسعى البحث لتحقيق عدد من الأهداف، وأبرزها:

1-تحليل السياق السياسي والعسكري والعقدي الذي سبق المجزرة ومهّد لوقوعها.

2-توثيق وقائع المجزرة وجمع الروايات والشهادات والوثائق للوصول إلى صورة علمية دقيقة.

3-الكشف عن الدوافع الحقيقية للمجزرة (سياسية، عقدية، عسكرية، مادية).

4-تحديد مسؤولية عبدالعزيز بن سعود المباشرة وغير المباشرة عن المجزرة.

5-نقد الرواية النجدية الرسمية وبيان تناقضاتها ومحاولات التبرير والتنصل.

6-إبراز العلاقة بين المجزرة والعقيدة الوهابية وتفسير جذور السلوك التكفيري الذي أنتج داعش والحركات المتطرفة.

7- تمهيد أرضية بحثية لقاعدة بيانات مستقبلية عن شهداء المجزرة وتاريخها.

الدراسات السابقة

لم أجِد – بحسب بحثي في فهارس الدراسات والكتب المتاحة وفي شبكة النت – بحثا مستقلا أُفْرِد لتلك المجزرة بحثا وتعليلا وتفصيلا، بل ولا حتى مقالة أكاديمية واحدة، وإذا صدق هذا الافتراض المرجَّح فهو ليس ببعيدٍ عن الهيمنة السعودية على اليمن، ولتفادي الكثير من الباحثين والمؤرِّخين الوقوعَ في مرمى غضب المملكة السعودية.

منهج البحث

سلك الباحث في هذا البحث المنهج التاريخي الوصفي القائم على جمع المعلومات وتفكيكها وتصنيفها ومقارنتها وتحليلها وكشف العلاقة بينها، وعرض النتائج التي تمَّ التوصل إليها، مع تحري الصدق والموضوعية.

تقسيم البحث

اشتمل البحث على مقدِّمة، وثلاثة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول: الأوضاع السياسية في اليمن ونجد والحجاز قبل وقوع المجزرة.

المبحث الثاني: المجزرة من حيث الزمان والمكان والأسباب.

المبحث الثالث: وقائع المجزرة، ومناقشة الرواية النجدية بالتفنيد والتبيين.

الخاتمة: اشتملت على أهم الاستنتاجات والتوصيات.

قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول الأوضاع السياسية في اليمن ونجد والحجاز قبل المجزرة

قبل الشروع في تفاصيل مجزرة الحجاج في تنومة يحسُنُ إيقافُ القارئ على المشهد السياسي العام الذي كان عليه اليمن ونجد والحجاز لما لها من علاقة بالحدث المراد بحثه.

المطلب الأول: اليمن

خضع جنوبُه للاحتلال البريطاني منذ عام 1839م وكان الإنجليز قد أنشأوا إماراتٍ وسلطناتٍ في ما كان يسمى بالجنوب العربي، كانت تدين لهم بالولاء والطاعة، مقابل التزاماتٍ مادية ومعنوية يتقاضاها أولئك الأمراء والسلاطين.

وأما في شماله فقد بُويِعَ الإمام يحيى حميد الدين إماما بعد وفاة والده الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين، في شهر ربيع الأول 1322هـ/ 1904م، وكان قد وُلِد في عام

1286هـ/ 1869م، ونشأ في صنعاء، وأخذ العلم عن والده وعلماء عصره[1].

كان معظم شمال اليمن يرزح تحت الاحتلال العثماني، ولكنَّ ثورات اليمنيين بقيادة الأئمة، وعلى رأسهم الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين ثم ابنه الإمام المتوكل على الله يحيى بن محمد، ألحقت بالأتراك خسائرَ فادحة اضطرَّتهم لعقدِ صلحِ دعَّان عام 1911م، والذي بموجَبه انتزع الإمام يحيى اعترافَ الخلافةِ العثمانية بزعامته الروحية والسياسية والثورية لليمنيين.

لكن هزيمة الأتراك العثمانيين في الحرب العالمية الأولى (1914- 1918م) هي التي عجَّلت بخروجهم من اليمن، فأُعْلِن استقلالُه، ودخل الإمام يحيى صنعاء في صفر 1337هـ/ نوفمبر 1918م[2].

بعد استقرار الإمام يحيى في صنعاء ذهب لإخضاع وإصلاح القبائل والمناطق اليمنية الأخرى، كلواء تعز، ووصابين وزبيد، وكانت بريطانيا قد احتلت ميناء الحديدة في العام 1337هـ، ثم سلَّمته في 22 جمادى الأولى 1339هـ، الموافق 31 يناير 1921م لحليفها السيد محمد بن علي الإدريسي حاكم المخلاف السليماني[3]، ليشتدَّ أوار المواجهة بين جيش الإمام يحيى وعساكر هذا المتغلِّب الإدريسي في تهامة، وقد ردَّ الإمام على تسليم بريطانيا للحديدة إلى حليفها الإدريسي باستعادة الضالع والشعيب والأجعود[4].

كانت تهامة وبعض المرتفعات المُطلة عليها – من جنوب الحديدة جنوبا إلى القنفذة شمالا – تحت حكم السيد محمد بن علي الإدريسي، وقد سلَّمته بريطانيا ميناءَ الحديدة مكافأةً له على خدماته لها في الحرب العالمية الأولى وبعدها، ونكايةً بخصمها اللدود الإمام يحيى الذي يَرْفَع شعارَ تحريرِ عدن ومحميات الجنوب بين الحين والآخر.

ومع ذلك فقد كانت هناك بعضُ الاضطرابات والتمرُّدات في مناطق حكم الإمام يحيى؛ إذ أرسل في عام 1337هـ/ 1919م سيفَ الإسلام أحمد بن قاسم حميد الدين "لإتقان أمور لواء إب"، وأرسل في نفس السنة الأميرَ علي بن عبدالله الوزير لإخماد فتنة في حُبَيش، والمقاطرة[5].

في تلك الفترة حدَثَتْ أيضا عدةُ تمرُّدات ومشاكل داخلية، منها تمرُّد أميرِ حجة السيد يحيى بن ناصر شيبان، وأخيه محسن في حجة عام 1337هـ/ 1919م[6]، وتمرد شيخ حاشد الشيخ ناصر بن مبخوت الأحمر، ثم فرار ابنه لاحقًا إلى ابن سعود، ومنها حركة السيد محمد بن علي الوزير في وادي السر ببني حشيش عام 1341هـ/ 1923م، والشيخ علي مطلق بهمدان صنعاء، وحركة بعض السادة آل النعمي عام 1339هـ ضد عامل الإمام في الشرفين، وكذلك موالاة الشيخ أحمد الزيحي في الشرفين للإدريسي[7].

(1) الجرافي، عبدالله عبدالكريم: المقتطف من تاريخ اليمن، ط2، 1984م، مؤسسة دار الكتاب الحديث، ص229- 230.

(2) الجرافي: المقتطف، ص237.

(3) الجرافي: المقتطف، ص238.

(4) الجرافي: المقتطف، ص239.

(5) مجهول، (لعله للعلامة يحيى بن علي الذاري): بحث مفيد، ضمن مجموع فيه رسائل وأشعار العلامة يحيى بن علي الذاري، موجود في دار المخطوطات اليمنية، برقم3021، ق 113/ ب.

(6) الشماحي: اليمن الإنسان والحضارة، ص191، 192.

(7) الشماحي: اليمن الإنسان والحضارة، ص192، 194؛ ومطهر، عبد الكريم بن أحمد (ت1366هـ): سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين،

لقد كانت الفترة من عام 1918م إلى 1923م أهمَّ وأخطرَ ما مرَّ على اليمن في تاريخها المعاصر، بسبب جسامة الحوادث التي تعرَّضَتْ لها البلاد، فالأخطار المُحْدِقة باليمن كانت عظيمة، والقوى المتربصة كانت كبيرة، ومعاول الهدم والتجزئة كانت مشحوذة، والباحثون عن الزعامة والمنافع كانوا متربّصين بالإمام يحيى الدوائر[8].

في الجانب الآخر وبعد خروج الأتراك من اليمن مباشرة، بعث كثيرٌ من مشايخ اليمن الأسفل وتهامة الرسائلَ والبعوثَ إلى المندوب السامي البريطاني في عدن، طالبين منه الدعمَ الفوري لمواجهة قوات الإمام يحيى الزاحفة إلى مناطقهم، وقد علَّق المندوبُ السامي في عدن على سيل الرسائل والبعوثِ المُرْسَلة إليه في هذا الشأن بقوله: "إن الحاصل في تلك المناطق من اليمن أن كلَّ مقدّم، وكلَّ عاقلِ حارة، وكلَّ شيخ، يريد الاستقلال بنفسه، حيث وصله مندوبون لأكثر من 12 شيخا، وكلُّهم يطلبون الاستقلال والدخول تحت الحماية البريطانية". "وأوردت الوثائقُ البريطانية أسماءَ الكثير من أولئك المشائخ الذين فضَّلوا الإنجليز على الاندماج في دولة الوحدة" التي كان يسعى إليها الإمام يحيى[9].

المطلب الثاني: الحجاز

ويضم الحرمين الشريفين مكة المكرمة، والمدينة المنورة، وكان يتولى أمره الأشراف، وآخرهم الشريف حسين بن علي، ابن عون، الذي ولد سنة 1270هـ/ 1854م، وعند اشتعال الحرب العالمية الأولى 1914م اتصل به البريطانيون؛ إذ كان ينقِم على الأتراك، فثار عليهم في الحجاز، وأمدَّه الإنجليز بالسلاح والمال، ووعدوه بتمليكِه على العرب، لكنهم تملَّصوا عن وعودهم له، وذهبوا – حتى قبل أن تنتهي الحرب – ليقتسموا بلاد العرب مع الفرنسيين فيما بينهم، فيما سمي باتفاقية سايكس بيكو.

في عام 1340هـ/ 1922م بعث الشريف الحسين بن علي ملك الحجاز وفدا إلى الإمام يحيى، فردَّ عليه الإمام بإيفاد وفدٍ يمني مماثل، مع قصيدةٍ غرّاء تدعو إلى الوفاق بين الأمة العربية[10]، ثم وفد على اليمن الرحالة العربي أمين الريحاني وصاحبه قسطنطين يني[11]، وقد حملا معهما رسالة من الشريف حسين بشأن عقدِ اتفاقيةِ تعاونٍ تحت شعار (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ) [آل عمران:103]، وقد أورد الريحاني في كتابه (ملوك العرب) البنود المقترحة في تلك الاتفاقية[12]، وبينما عاد صاحبه قسطنطين يني بذلك المشروع إلى الحجاز، أكمل الريحاني طريق رحلته إلى العراق ثم إلى نجد في تلك السنة.

ورغم حِرص الإمام يحيى على سرّية مشروع تلك الاتفاقية عن كل أحد[13]، لكن يبدو أن أخبارها قد تسرّبت إلى مسامع بريطانيا وحلفائها؛ وعلى رأسهم ابن سعود سلطان نجد آنذاك، الخصم اللدود للشريف حسين ملك الحجاز؛ ومما يدل على ذلك ما صرَّح به الريحاني من أن (جروترد بل) كاتبة أسرار المندوب

المسماة كتيبة الحكمة من سيرة إمام الأمة، تحقيق محمد عيسى صالحية، ط1، 1418هـ/ 1998م، دار البشير – عمّان، ج2، ص243.

(8) حميد الدين، أحمد بن محمد بن الحسين: الإمام الشهيد يحيى حميد الدين، دار المعارف، ج1، ص276.

(9) حميد الدين: الإمام الشهيد يحيى حميد الدين، ج1، ص282.

(10) مستهلها:

مغلغلة منشورة في المحافل تهيم وتذري الدمع تهيامَ ثاكل

الجرافي: المقتطف، ص239.

(11) الجرافي: المقتطف، ص241.

(12) الريحاني، أمين: ملوك العرب، ط8، 1987م، دار الجيل، بيروت، ج1، ص218– 224.

(13) الريحاني: ملوك العرب، ج1، ص174.

السامي البريطاني في العراق أخبرته – عند لقائه بها هناك – "بأمورٍ تتعلَّق" برحلته، يضيف الريحاني[14] قولَه: "لم أستغرِبْ علمَها بها؛ لأني أعلم أن وكلاء إنكلترا السياسيين ومندوبيها في البلاد العربية يتبادلون التقارير السِّرِّيَّة من حينٍ إلى حينٍ".

ومع ذلك فإن الشكَّ ينتابني حول الريحاني نفسه، أنه هو الذي ساهم في تسريب خبرِ تلك الاتفاقية بشكلٍ أو بآخر إلى ابن سعود نفسِه في ذلك العام، وأنه كان يؤدِّي مهمة إنجليزية في إيقاع العرب ببعضهم، وهو الذي كان يحمل الجنسية الأمريكية، والذي كان يحرص على تطويعِ الحكَّام العرب لرغبات الإنجليز، بمبرِّر ضرورة التعامل معهم.

جديرٌ بالذكر أنه بعد ذلك طاب له المقام في حضرة سلطان نجد ابن سعود، وكتب في سيرته كتابه (تاريخ نجد الحديث)، الذي ملأه تبجيلا وتعظيما لابن سعود، وثناء وإشادة به وبحكمه.

ومع ذلك فقد كان الشريف حسين أيضا يحاوِلُ إقناعَ الإمام يحيى بمصالحة الإنجليز، فقد "كان ولده فيصل يحاول عبر مستشارِ الإمامِ إقناعَ الإمام يحيى بأهمية التقارب مع بريطانيا لعلاقاتٍ فيها مصلحة الأمتين"[15].

صرَّح الريحاني بمهمته لمَّا استثْبَته الإمام يحيى عن بيتِ القصيد في رحلته، والذي حمله على ترحاله إلى اليمن، فقال: "هما بيتان، الأول: أن تتفقوا والإنكليز، والثاني أن تعقدوا معاهدة مع ملك الحجاز"[16]؛ وتؤكِّد ذلك الوثائق البريطانية المعاصرة لهذه الأحداث؛ حيث تتحدَّث أنه إذا تمَّ عقدُ معاهدة بينهم وبين الإمام فإنهم يقترِحون إعطاءَه مبلغا معيَّنا من الإعانات الشهرية، التي كان يتلقاها حلفاء بريطانيا في المنطقة ولا سيما ابن سعود في نجد[17].

وافق الإمام يحيى – بحسب الريحاني – على مشروع اتفاقية تحالفٍ مع الشريف حسين، ولم يتحقَّق شيء فيما يتعلَّق ببريطانيا، وهذا بالتأكيد سيزيد من نقمة بريطانيا على دولة الإمام يحيى.

المطلب الثالث: جيزان

كان السيد محمد بن علي بن أحمد الإدريسي قد أعلن دعوته للإمامة في مدينة صبيا عام 1906م، معتمدا على النفوذ الروحي والثروة المعنوية التي حققها جده السيد أحمد الإدريسي بعلمه وجهوده في الوعظ والإرشاد لأهل منطقة جيزان، وقد عقد السيد محمد الإدريسي مع إيطاليا معاهدة تحالف عام 1912م، ثم وقَّع معاهدة تحالف أخرى مع الإنجليز عام 1915م. كان الإدريسي أول حكام الجزيرة العربية اصطفافا مع بريطانيا في مواجهة الأتراك في الحرب العالمية الأولى، واستخدمه الإنجليز دميةً طيِّعة لمواجهة خصومهم، ولم يكُن يُحَرِّك ساكنا إلا بأوامرهم، مقابل حصوله على مساعدةٍ شهريةٍ مقدَّرة بـ1000جنيه[18]، وكانت علاقته بالإمام يحيى متَّسمة بالتفاهم في بداية الأمر، لكنه بعد تحالفه مع إيطاليا ثم مع بريطانيا اتَّسمت بالتجاذُب والاختلاف حتى وفاته في مارس 1923م[19].

عقب ذلك حدَثَتْ منازعاتٌ شخصيةٌ داخل البيت الإدريسي، استغلها الإمام يحيى في تحرير الحديدة

(14) ملوك العرب، ج1، ص497.

(15) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج1، ص292-297، مقدمة المحقق الدكتور صالحية.

(16) الريحاني: ملوك العرب، ج1، ص169.

(17) صفوة، نجدة فتحي: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، ط1، 2007م، دار الساقي – بيروت، مج7، ص157.

(18) صفوة، الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مج7، ص157.

(19) حميد الدين، الإمام الشهيد يحيى حميد الدين، ج1، ص302، 303.

والصليف واللحية وميدي عام 1925م، ولمَّا رأت بريطانيا تقدُّم جيوش الإمام يحيى في شمال تهامة وتحفُّزَه للانقضاض على ما بقي في يد الإدريسي من أراض يمنية، رأت أن أفضل الحلول لمنع حدوث هذا هو كفُّ يدها عن مساعدة الإدريسي الضعيف، فلا يبقى أمامه سوى اللجوء إلى الحماية السعودية؛ لتقف نجد بدعم بريطانيا في مواجهة اليمن.

وبالفعل كان هذا ما حدث، حيث أُعْلِنَتْ اتفاقية مكة عام 1926م بين الإدريسي وابن سعود، بموجبها دخل المخلافُ السليماني تحت السيادة السعودية، مقابل احتفاظ الإدريسي بشؤونه الداخلية[20]، لكن السعوديين انقلبوا لاحقا على عملائهم الأدارسة، وقَضَوا على إمارتهم المتطفِّلة نهائيا، وضموها إلى سيادتهم.

المطلب الرابع: عسير

تقع ضمن أراضيها أبها وخميس مشيط وتنومة والنماص، وكان يحكمها حسن بن عائض، والذي ولي الأمر مستقلا بعد خروج الأتراك بعد الحرب العالمية الأولى عام 1918م، لكن بسبب نزعة التوسع السعودية في أراضي عسير استطاع جيش ابن سعود إخضاعَها لسيطرته؛ ولم يقف ابن عائض مكتوف اليد فاستنجد بالشريف حسين ملك الحجاز، فاستعاد (أبها).

أرسل ابن سعود جيشا من الإخوان (الغطغط)[21] بقيادة ولده فيصل عام 1340هـ /1922م، فظفر فيصل بعد معارك حامية، ودخل (أبها) في صفر عام1341م، فأقام فيها حامية عسكرية، وعاد إلى الرياض بعد نحو ستة أشهر، وانتهز حسن بن عائض فرصة عودة فيصل وخلوِّ الجو له، فجمع قوته وأعاد الكرة على الحامية السعودية في أبها وأميرها عبد العزيز بن إبراهيم، لكنه لم ينجح، وأخيرا ظفر به عبدالعزيز بن إبراهيم واقتاده أسيرا إلى الرياض(22). بقيَت بعض قبائل بني شهر من عسير تأنف الخضوع لابن سعود، وتدين بالولاء لشريف الحجاز، فظلَّت حالة الاشتباك بينهم وقوات ابن سعود من الإخوان بقيادة عبد العزيز بن إبراهيم حتى مرور قافلة الحجيج اليمانية.

المطلب الخامس: نجد

وتضم الرياض والدرعية وما جاورهما، وكان في الرياض قد وُلِد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل الفيصل آل سعود عام 1293هـ/ 1876م، ثم فرَّ مع أبيه إلى الكويت بعد أن استولى آل الرشيد على الرياض، ثم كان ينزِع دوما الى استعادة مُلْك أجداده في نجد، وقد استطاع وهو في العشرينات من عمره أن يستعيد عاصمة أجداده (الرياض) في إحدى ليالي شهر شوال من عام 1319هـ / يناير 1902م.

وليس مستبعدًا دورُ بريطانيا في هذه الحركة النجدية، لكن المعلوم أن عبد العزيز كان بعد ذلك حليفَ بريطانيا المفضَّل، وأنه كان الحاكم العربي الوحيد الذي "يقبض إعاناته من الإيرادات الامبراطورية"[23]، وأنه كان يستلم إعانة شهرية بريطانية بمقدارِ خمسةِ آلاف جنيه استرليني بالإضافة إلى أسلحة وذخائر(24)، وكان مؤتمر القاهرة المنعقد بتاريخ1921م قد وضع سياسة شاملة لإعانات حلفاء بريطانيا من العرب،

(20) حميد الدين، الإمام الشهيد يحيى حميد الدين، ج1، ص307، 308.

(21) سيأتي التعريف بهم.

(22) الزركلي، خير الدين: الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، ط5، 1988م، دار العلم للملايين-بيروت، ص67.

(23) صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مج7، ص154.

(24) صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مج7، ص156؛ وحبيب، جون: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ترجمة عبدالله بن مصلح النفيعي، ط 1996م، ص116.

وقرَّر زيادة الإعانة لابن سعود الى مائة ألف جنيه سنويا، واقترح مساواة الشريف حسين بابن سعود[25].

وقد أَرسل ابن سعود في 2 أغسطس 1920م إلى الهيئات البريطانية مستزيدا لهباتهم يقول: "ادعموني وأنا أضمن لكم أيَّ عمل عدائي للإنجليز"، ويقول أيضا: "لقد أعطيتُم أصدقاءَكم الخوَنة ألقابا وأراضيَ غنية، وأنا صديقكم الحقيقي بقيتُ فقيرا أكثر من ذي قبل"[26].

ظهرت احتياجات وإعانات ابنِ سعود لدى بريطانيا الموضوع البارز لوثائقها المنشورة؛ ولهذا كان الإنجليز قِبلةَ ابنِ سعود عند المُلِمَّات، وقد أبرق المندوب السامي في العراق برسي كوكس إلى وزير المستعمرات في يناير 1923م يخبره بضائقة ابن سعود المالية، وأنه مَدِينٌ بمبالغَ كبيرة، وحضَّه في تلك البرقية على ترتيب سُلْفة أو قرضٍ بقيمة 50 ألف جنيه، وتشير الوثيقة أن المندوب السامي اقترح إعطاءَه المبلغَ المرغوبَ قرضا من قِبَل أصحاب امتياز النفط، الذي بدت مؤشِّراتُ تدفُّقِه في الجزيرة العربية في تلك السنة[27]؛ الأمر الذي من المرجَّح أنه أسال لعاب بريطانيا فأغدقت أموالها على هذا الحليف العربيّ الواعِد.

تفرَّد عبد العزيز – كما يروي مؤرِّخه المُعْجَبُ به الأستاذ خير الدين الزركلي – بين أقرانه "بمزايا أهمها المفاجآت تصبيحا أو هجادا[28]، أو من حيث لا ينتظر عدوُّه الهجومَ، وكان يعتمد على الاستخبارات قبل الملاقاة، فقلَّما أغار على أرضٍ يجهلها، أو ليس له عينٌ فيها يبعث إليه بأخبارها، ويكثر من الاحتياط إذا هم بالزحف، ويَفترِض في خصمه من القوة أضعاف ما هو فيه"[29].

كانت (نجدُ ابنِ سعود) و (حجازُ الأشراف) تتنازعان واحتي (الخرمة)[30] و(تُرَبة)[31] على الحدود بينهما؛ لذا فقد انقضَّ جيش ابن سعود بقيادة سلطان بن بجاد التميمي حاكم (هجرة الغطغط)[32]، والشريف الوهابي خالد بن لؤي حاكم (الخرمة)، على جيشِ الشريفِ حسين ملك الحجاز على مقربة من (تُرَبة) فمُزِّق هناك جيشُ الشريف حسين بتاريخ 25 شعبان 1337هـ / 1919م(33).

وكالعادة فإن عبد العزيز بن سعود لم يملِك بعد أن رأى جُثث القتلى كالتلال إلا أن ترقرق دمعُ عينيه، على حد قول روايات مُعْجَبيه(34)، ومع ذلك فإنه لم ينفك عن هوى هؤلاء المقاتلين المتوحِّشين؛ لذا فإنه أرسلهم هم بذاتهم لاقتحام مدينة الطائف، وبالفعل تم اقتحامها في صفر 1343هـ/ سبتمبر1924م، و"انطلق الأعراب يقتلون وينهبون على عادتهم في ذلك العهد"[35]، وارتُكِبَتْ تلك المجازر البشعة، وليس لدى ابن سعود غيرُ البكاء والتنصُّل من جرائمهم، كما هو في كل مرة، ولم يكن بكاؤه ذلك بمانعٍ له من أن يُكَلِّفهم مرة أخرى باقتحامِ مكة المكرمة ثم جدة وغيرهما.

(25) صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مج7، ص154.

(26) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص116-117.

(27) صفوة: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، مج7، ص114.

(28) هي الغارة العسكرية التي تكون ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر، كما سيأتي تفسيرها عند الحديث عن تكتيكات الإخوان الوهابيين العسكرية.

(29) الزركلي: الوجيز، ص71.

(30) تقع شمال شرقي مدينة الطائف وتبعد عنها مسافة 230 كم.

(31) توصَف بأنها بوابة نجد ومفتاح الحجاز، وهي تبعد بمسافة مستقيمة شرقا عن مدينة الطائف 130 كم وعن مدينة الباحة 120 كم.

(32) سيأتي التعريف بها.

(33) الزركلي: الوجيز، ص82.

(34) الزركلي: الوجيز، ص82.

(35) الزركلي: الوجيز، ص84.

وصف الرحالة العربي أمين الريحاني المتشدِّدين من الإخوان الوهابيين، سكان الهِجَر (جمع هجرة)، بأنهم: "جيشُ ابن سعود القومي الديني، جيش التوحيد". وقد جمعهم ابن سعود في هجَر، حيث كان يعيّن بقعة من الأرض فيها ماء لقبيلة، فينزحون إليها، ويبنون بيوتهم فيها بمساعدته لهم ماليا، ويرسل إليهم المطاوعة لتعليمهم التوحيد وأساسيات الوهابية[36].

وحكاية الإخوان الوهابيين مع ابن سعود حكاية عتيدة، حقَّقها الباحث الغربي المُعْجَب به وبالإخوان أيضا، إنه جون حبيب، الذي وصف تحرُّكاتِهم في الجزيرة العربية بقوله: "اكتسحوا الجزيرة العربية كمبضعٍ للجراح الذي يزيل ما هو مؤلِم أو خبيث، ويترك ما هو معافىً وصحي"[37]، وفي هذه العبارة ما فيها من الانحياز للإخوان الوهابيين والتبرير الفجِّ لفظائعهم ومجازرهم.

ومع ذلك فمن المهم اعتمادُ تقريرِه عن الإخوان؛ لأنه توصَّل إليه بعدَ كثيرٍ من العناء والاطلاع على الوثائق البريطانية والأمريكية، ومنها 73 وثيقة، و58 كتابا، و30 مقالة، وأجرى 12 مقابلة شخصية مع صناعِ أحداثِ الإخوان، وخرج بتقريرٍ أسماه: (جنود ابن سعود المحاربون من أجل الإسلام)[38].

هذا الباحث الغربي الذي لا يُتَّهم في الإخوان، وقد أثنى عليهم وبرَّر فظاعاتِهم في أكثرَ من مكان في كتابه[39]، توصَّل إلى بعض النقاط الهامة عنهم، ومنها:

1-أنهم أولئك البدو النجديون الذين اعتنقوا الوهابية عن طريق الوعظ الديني، وبمساعدة ابن سعود المادية تركوا الحياةَ البدوية ليعيشوا في هِجَر بناها ابنُ سعودٍ لهم[40]، وتجمَّعت تلك المجاميعُ في تجمُّعاتٍ سكنية سُمِّيت بـ(الهجر)، والهجرة تعني الرحيل من وسَطِ غيرِ المؤمنين إلى عالم الإسلام[41].

2-وجد الكاتب أن مختَلَفَ مصادرِه تتفق أن ابن سعود هو الذي أنشأ حركة الإخوان[42]، وأنه هو المسؤول عن قيامها كما هو المسؤول عن إسقاطها أيضا[43].

3-ووجد أن ظهورَهم في عام 1912م، أي بعد استعادة ابن سعود لنجد، وهذا يمكن فهمه في إطار خِطة احتلال ابن سعود للحجاز، وأنه لم يكن تكوينهم حدثا عارضا أو استجابة لأغراض اجتماعية أو اقتصادية أخرى[44]، بل لاستخدامهم في تحقيق حلم ابن سعود السياسي.

4-بلغ عدد الهِجَر كبيرا، وأهمها هجرة الأرطاوية، ثم هجرة الغُطْغُط، والأخيرة أُسِّسَت في عام 1912م على يدِ أفرادٍ، معظمُهم من قبيلة عُتيبة، ووصل تعداد المنتسبين إليها إلى (12000) نسمة، وتقع على بعد 50 ميلا جنوب الرياض، وحاكمُها هو سلطانُ بن بجاد العتيبي الرجل الذي قاد الغزو نحو الطائف وشارك في احتلالها؛ وصنَع الرعب الذي تميَّز به الإخوان من جيش ابن سعود[45].

(36) الريحاني، أمين: تاريخ نجد الحديث، ط6، 1988م، دار الجيل، بيروت تاريخ نجد الحديث، ص258، 261، 262.

(37) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص209-210.

(38) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص8، مقدمة المترجم النفيعي.

(39) ينظر على سبيل المثال ما ذكره في إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص209، 210.

(40) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص36

(41) الريحاني: ملوك العرب، ج1، ص261.

(42) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص43.

(43) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص46.

(44) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص38.

(45) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص79، 80، 81.

5-وكانت كل هجرة تُحْكَم بواسطة أمير وحاكم إداري، وكلاهما مرتبط مباشرة بابن سعود[46].

6-وكانوا في قتالهم تحدوهم الرغبةُ في الشهادة في سبيل الله، كما كانت تتسم تكتيكاتهم العسكرية بصناعة التوحش والرعب من خلال ذبح كلِّ الرجال والأطفال في معسكر العدو، وفي بعض الأحيان بذبح النساء[47].

7-وكانت أنواع هجومات الإخوان هي : 1- الصُّبحة في ساعات الفجر الأولى. 2- الغارة وتكون قبل الظهر. 8-الراعة وتعرف بالتروية وتحدث بعد الظهر وتتطلَّب قوةً عسكرية إلى درجة ما، وقوة ضاربة كما في الصبحة. 9-الهجدة وهي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر[48].

10-وكان التكتيكُ العامُّ لمعارِكِهم عبارةً عن ضربةٍ أو خبطةٍ مباغِتة ومرَكَّزة دون أن تعطيَ للخصم فرصة للتفكير، وفي حالة الهجوم المباغِت كانوا ينقضُّون على الهدف كنسيجٍ متوحِّشٍ من الرجال على الجياد والجمال والمشاة، ويحطِّمون كلَّ شيء في معسكر العدو، ويقتلون الجنود وكلَّ شخص هناك دون عطفٍ أو رحمة[49].

11-ولهذا كانوا "الأداةَ الفريدة التي استخدمَها ابنُ سعود" لإخضاعِ شبهِ الجزيرة العربية لحكمه؛ بدليل أن جميعَ الأماكنِ الاستراتيجية والمهمة التي استولى عليها ابنُ سعود فيها سقطت في أيديهم، ومنها تُرَبة، والطائف، ومكة، والمدينة، وحائل، والجوف، وكان الخوف من انتقام الإخوان هو الذي جعل كل المناطق الخاضعة وخاصة (حائل) خالية من العصيان أو التمرد العلني[50].

12-ورغم قضاء ابن سعود على حركة الإخوان عام 1929م، لما أكثروا المشاغبات عليه، وانتهى الدور المرسوم لهم، لكن اعترافا بإسهامهم في تكوينِ دولته فإن الإخوان المخضرمين كانوا يحصلون على معاشٍ شهري جيِّد من حكومة ابن سعود، وامتدَّت هذه المزايا لتشمل أبناءهم الأوائل وإن بصورة أقل[51].

المطلب السادس: نجد في ضوء الأحاديث المتعلقة بـ(قرن الشيطان)

يشير التراث الإسلامي إلى جملة من الأحاديث النبوية الصحيحة التي تناولت منطقة نجد وما يرتبط بها من ظهور الفتن واضطراب الأحوال، وهو ما يستدعي مقاربة علمية لهذا الموروث عند دراسة الحركات الدينية التي نشأت في هذه المنطقة في القرون الأخيرة، وفي مقدمتها الدعوة الوهابية. ويُعَدّ الوقوف على هذه النصوص جزءًا من محاولة فهم السياقات العقدية والاجتماعية التي أحاطت بظهور تلك الظواهر وتأثيرها في واقع العالم الإسلامي.

وقد وردت في الصحيحين والمسانيد روايات متعددة تصف نجدًا بأنها موضع الزلازل والفتن، وأن منها يطلع «قرن الشيطان»، كما في حديث ابن عمر في صحيح البخاري حين كرّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الدعاء لليمن والشام، وعند سؤال الصحابة عن نجد قال: (هناك

(46) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص86.
(47) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص94.
(48) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص93.
(49) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص96.
(50) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص207.
(51) حبيب: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ص213.

الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان)[52]، كما ورد في أحاديث أخرى أن الفتنة تُشار إلى جهة المشرق، وأن القسوة وغلظ القلوب تكون «عند أصول أذناب الإبل في ربيعة ومضر». وتُفهم «الزلازل» هنا بمعناها المجازي الدالّ على الاضطرابات والاختلافات، فيما يشير وصف «الفدادين» إلى أهل الأصوات المرتفعة في الحروث والمواشي.

وتُظهر هذه الأحاديث – في إطارها التاريخي واللغوي – مقابلةً لافتة بين صفات أهل اليمن وصفات أهل تلك الجهة؛ إذ نُسِب الإيمان والحكمة إلى اليمن، ونُسِبت الفتن والقسوة إلى جهة نجد والمشرق[53]، الأمر الذي يفسّره عدد من الباحثين بوصفه توصيفًا لبيئتين اجتماعيتين مختلفتين، لا حكمًا قيميًّا مطلقًا.

وفي هذا السياق التاريخي، برزت الدعوة الوهابية في القرن الثاني عشر الهجري على يد الشيخ محمد بن عبدالوهاب في منطقة نجد، متحالفةً مع أسرة آل سعود لتكوين كيان سياسي جديد توسّع لاحقًا باتجاه الحجاز واليمن والعراق. وقد رافق هذا التوسع أعمال عنف مرويّة في عدد من المصادر التاريخية. كما تشير الوثائق البريطانية إلى دعمٍ قدّمته بريطانيا لهذا الكيان في أطوار مختلفة من نشأته، ثم انتقل هذا الدعم إلى الولايات المتحدة بعد لقاء الملك عبدالعزيز والرئيس روزفلت عام 1945م.

ومن المهم الإشارة إلى أن العلاقات بين الإمام يحيى حميد الدين وعبدالعزيز بن سعود لم تكن قد تشكلت بعدُ عشية وقوع تلك المجزرة، ولم يكن هناك تماسّ حدودي مباشر بين الدولتين في ذلك الوقت، الأمر الذي يبرز سياقًا سياسيًا معقدًا سبق الحدث وأحاط به.

وبهذا العرض المختصر اتضح المشهد السياسي الذي كان يرسِم الحالة في أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية عشية وقوع المجزرة.

المبحث الثاني مجزرة تنومة.. الزمان والمكان والدوافع

المطلب الأول: زمان وقوع المجزرة

تعدَّدت رواياتُ المؤرِّخين في تحديد زمن المجزرة فقد ذكر الواسعي[54]، والكرملي[55]، والرحالة العربي نزيه مؤيد العظم[56]، والأستاذ أحمد حسين شرف الدين[57]، وتبعهم الأستاذ يوسف الهاجري[58]، أنها ارتُكِبَتْ في عام 1340هـ. غير أن عددا من المصادر الهامة والمعايِشة للحدث، والقريبة من تفاصيله أرَّخت المجزرة بذي القعدة 1341هـ / 1923م.

وعلى رأس تلك المصادر سيرة الإمام يحيى حميد الدين حيث تقول: "وفي هذه السنة 1341هـ في يوم

(52) أخرجه مالك (975/2، رقم 1757)، والبخاري (3/ 1293، رقم 3320)، ومسلم (2228/4، رقم 2905)، وأخرجه أيضًا: أحمد (121/2، رقم 6031).

(53) ينظر مسند أحمد (118/4، رقم17107)، والبخاري (202/3، رقم3126)، ومسلم (71/1، رقم51).

(54) الواسعي، عبد الواسع بن يحيى (ت1379هـ): تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، ط1346هـ، المطبعة السلفية، القاهرة، ص264.

(55) العرشي، حسين بن أحمد (ت1329هـ): بلوغ المرام شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص93، والكتاب ابتدأ تأليفه القاضي العرشي، ووصل فيه إلى حوادث عام 1900م، ثم أكمل حوادثه الأب أنستاس الكرملي وانتهى فيه إلى عام 1358هـ، الموافق 1939م.

(56) العظم، نزيه مؤيد: رحلة في العربية السعيدة، ط2، 1407هـ/ 1986م، منشورات المدينة، بيروت، ص218–219.

(57) شرف الدين، أحمد حسين: اليمن عبر التاريخ، ط2، 1384هـ/ 1964م، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ص38.

(58) الهاجري، يوسف: السعودية تبتلع اليمن، ط1، 1988م، لندن، ص10.

السبت السادس عشر، وقيل: في يوم الأحد السابع عشر من شهر ذي القعدة الحرام ..."[59]، ويقول الجرافي[60]: "وفي هذه السنة 1341هـ هاجمت النجودُ حجاج اليمن ..."، وترجم المؤرِّخ زبارة لأحد شهدائها وهو العلامة القاضي أحمد بن أحمد السياغي، وذكر أنه أحدُ مَنْ ذهبوا لحج سنة1341هـ، فكان ممن "استُشْهِدَ في يوم السبت 16 ذي القعدة بمطرح تنومة وسدوان"[61]، والمؤرِّخ محمد بن محمد زبارة أحدُ مَنِ اضطلعوا بالملف اليمني في المفاوضات التي أعقبت المجزرة مع ابن سعود[62].

وهذا القول هو الأصوب؛ لما ذُكِر، ولكونه التاريخ الذي حدَّده المعنيون بالقضية، ومنهم القاضي العلامة الحسين بن أحمد السياغي رئيس الاستئناف بصنعاء، وهو ابن أحد شهداء تنومة، وقد ذكره كذلك عند ترجمته لوالده[63]. كما حدَّده مخطوطُ "بحث مفيد في ذكر المصيبة العظمى التي لم تقع فيما تقدّم إلا في هذا العام بحجاج بيت الله الحرام في طريق الحجاز"، والذي كُتِبَ عقِب المجزرة[64]. وكذلك ذكره السيد الإمام مجد الدين المؤيدي في ترجمة أحد شهداء تنومة وهو السيد العلامة الحسين بن أحمد شريف المؤيدي[65]. وأكَّدته جريدة القبلة المكية في عددٍ صادرٍ منها بعد المجزرة بأيام[66]، والذي سرعان ما انعكس في برقيات بريطانية تُعتَبَر من وثائق ذلك العهد[67]، بشكلٍ يؤكد وقوع المذبحة في ذي القعدة 1341هـ /1923م.

وبينما تؤرِّخ المصادر وقوعَها في السبت 16 ذي القعدة 1341هـ، ومنها الأكوع في هجَر العلم ومعاقله في اليمن[68]، والبحث المفيد في المصيبة العظمى المرفق بقصيدة السيد العلامة يحيى بن علي الذاري[69]، وزبارة في نزهة النظر[70]؛ فإن وثيقة بخط السيد العلامة قاسم بن حسين أبو طالب المشهور بـ(قاسم العزي) أحد رجال حكومة الإمام يحيى وكبار مفاوضيه مع ابن سعود[71]، وتعليقة كتبها أمير حج ذلك العام السيد العلامة محمد بن عبدالله شرف الدين بخطه تعطيان تحديدًا دقيقا لتوقيت الحادثة، وهو يوم الأحد 17 ذي القعدة 1341هـ الساعة الخامسة بالتوقيت الغروبي[72]، أي الموافق 1 يوليو 1923م. ويترجّح لدى الباحث ما ذكره أمير الحج حيث هو أدرى وأعلم من غيره بتاريخ وتوقيت الحادثة.

(59) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص417-418.
(60) المقتطف، ص245.
(61) زبارة، محمد بن محمد بن يحيى (ت1380هـ): نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر، ط1، 1431هـ/2010م، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ج1، ص54.
(62) شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، ص380.
(63) السياغي، الحسين بن أحمد (ت1410هـ): أصول المذهب الزيدي اليمني وقواعده، ط1403هـ، ص22 (الهامش).
(64) مجهول: بحث مفيد، ورقة 114/ أ.
(65) المؤيدي، مجد الدين بن محمد: التحف شرح الزلف، ط1، 1414هـ/1994م، مؤسسة أهل البيت للرعاية الاجتماعية، صنعاء، ص243-244.
(66) العدد 703، 27 ذي القعدة، 1341هـ/ 12 يوليو، 1923م، مقالة: فاجعة فظيعة، ص1.
(67) كما سيأتي.
(68) الأكوع، إسماعيل بن علي: هجر العلم ومعاقله في اليمن، ط1، 1416هـ/ 1995م، دار الفكر المعاصر، بيروت، ج2، ص666.
(69) مجهول: بحث مفيد، ق114/أ.
(70) ج1، ص54.
(71) شرف الدين: اليمن عبر التاريخ، ص379.
(72) الأكوع: هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج2، ص666؛ وشرف الدين، محمد بن عبدالله (أمير الحج تلك السنة): تعليقة بخطه على كتاب تاريخ اليمن للواسعي عند ذكره للحادثة.

وتوقيتها في ظهر ذلك اليوم ورد أيضا في مخطوط البحث المفيد[73]، بل بتفصيل أكثر، حيث ذكر أنهم تعرَّضوا للمذبحة وبعضهم كان قد انتهى من شدِّ رحْلَه بعد الغداء، وبعضهم في حال شدِّ الرحل، وبعضهم كان لا زال في حال الغداء[74]، ولا يتعارض هذا مع ما قاله أمير الحج، من كونها في الساعة الخامسة غروبيا قبل الظهر، فهو ذكر بداية المجزرة في المطرح الأول في تنومة، واستمرّ ذلك حتى المطرح الثاني والثالث في سدوان الأعلى والأسفل.

المطلب الثاني: مكان المجزرة

تكاد المصادر تُجْمِع أنه في (تنومة) من (بني شهر) بين (بني الأسمر) و (بني الأحمر) في منطقة (عسير)[75]، لكنه ورد في سيرة الإمام يحيى ووثيقة العلامة قاسم العزي تفصيلٌ أكثر لمكان المذبحة، وهو أن الحجاج كانوا قد نزلوا على ثلاث فرق، الفرقة الأولى تقدَّمت ونزلت في (تنومة)، وعدادها في (بني شهر)، وفرقة في (سدوان الأعلى)، وفرقة في (سدوان الأسفل)[76]، و (سدوان) معدودٌ في بني الأسمر.

المطلب الثالث: دوافع وأسباب ارتكاب المجزرة

وصفت جريدة القبلة المكية تلك المجزرة بأنها "الفاجعة الفظيعة التي لم يسبِق لها مثيلٌ في التاريخ"[77]، والسؤال الأهم ما هي الأسباب التي دفعت أولئك النجديين إلى ارتكابِ جريمةٍ بشعة وفظيعة بحق مسافرين وحجاج مسالمين وبأعدادٍ مهولة، ولماذا حاولوا بكل ما لديهم من قوة أن يقتلوهم جميعا حتى الجرحى منهم؛ إذ كانوا يذفِّفون على الجريح، ويتمِّمون قتله، ولماذا حرصوا على إبادتهم تماما حتى النساء منهم؟!

ويمكن الإجابة على ذلك في ذكرِ عددٍ من الأسباب:

1- دوافع وأسباب سياسية

شكَّلت مجموعةٌ من العناصر دوافع وأسبابا سياسية دفعت أولئك النجديين لارتكاب هذه المذبحة بسَبْقِ تعمُّدٍ وإصرار. كان الملك عبد العزيز بن سعود قد أخضعَ معظم عسير لحكمه وعلى رأسها (أبها)، وقد قدِم ولدُه فيصل بجيش من الإخوان التكفيريين، وخاض عددا من المعارك مع ابن عائض العسيري انتهت بهزيمته وتثبيت حكم النجديين على هذا الجزء من اليمن الكبرى؛ وعلى إثرها عاد فيصل إلى الرياض في أوائل سنة 1341هـ، لكن قبائلَ من بني شهر في عسير لم تشأ الاستسلام، حيث ثار الشيخ الشبيلي وجماعة من بني شهر ضد ابن سعود خلال عام 1341هـ، واشتبك مع جيش ابن سعود بقيادة عبد العزيز بن إبراهيم[78].

في المقابل كان الإمام يحيى واليمنيون يعتبرون منطقة عسير جزءًا لا يتجزأ من اليمن وكانوا يجاهرون بذلك؛ ولهذا كان الخلاف والاصطدام متوقعاً، وكان تأجيله ناتجًا عن انشغال الإمام يحيى بترتيب أوضاعه الداخلية التي منعته من التعامل بما

(73) مجهول: بحث مفيد، 114/أ.

(74) مجهول: بحث مفيد، 114/أ.

(75) الجرافي: المقتطف، ص245؛ والكرملي: بلوغ المرام، ص93؛ والواسعي: تاريخ اليمن، ص264؛ وشرف الدين: اليمن عبر التاريخ، ص380؛ والسياغي: أصول المذهب الزيدي اليمني وقواعده، ص22، الهامش؛ وزيارة: نزهة النظر، ج2، ص581؛ ومجهول: بحث مفيد، 114/أ؛ والأكوع: هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج2، ص666؛ ومطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص417-418.

(76) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص418؛ والأكوع: هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج2، ص666.

(77) جريدة القبلة، العدد 703، ص1.

(78) مجلة المنار، مج33، العدد 7، شعبان 1352هـ/ نوفمبر 1933م، مقالة: ما بين الإمامين في جزيرة العرب، ص20؛ نقلا عن جريدة أم القرى السعودية، أول رجب سنة 1352هـ.

ينبغي تجاه ملف عسير، بينما كان سلطان نجد عبدالعزيز بن سعود ينتظر الفرصة لإيصال رسالةِ تهديدٍ وإجبارٍ للإمام يحيى بإقرار الوضع الحالي كما هو عليه وبدون ادعاءات.

كان الإمام يتمسَّك بالحق التاريخي في عسير جبالِها وسهلها وأنها جزء لا يتجزّأ من اليمن منذ قرون طويلة، بل ولأنه كان الوريثَ الوحيدَ للأتراك العثمانيين في كل ما كانوا يسيطرون عليه في اليمن، بما في ذلك عسير، التي كانوا يعتبِرونها اللواء الرابع من ألوية اليمن، وكان ينظر إلى الأدارسة على أنهم دخلاء[79].

يقول الدكتور الوجيه: "إن رفض الإمام يحيى للاحتلال السعودي لمدينة أبها وما حولها ومطالبته لآل سعود بالرحيل منها ليوحي بأن تلك الحادثة (مجزرة تنومة) كانت رسالة تهديد وتخويف"[80].

من جانبٍ آخر، ظلَّ الإمام يحيى عصيًّا على بريطانيا الاستعمارية على خلافِ جميعِ حكام الجزيرة العربية، لم يقبل التطويع، وأنِف من التحالف معهم والمهادنة لهم، باعتبارهم أعداءً للأمة، ويسعون لاحتلال بلدانها واستغلالها، وباعتبارهم محتلين لجنوب اليمن، وكانت بريطانيا تتحين الفرص إلى الدفع بالحاكِمَيْنِ الأقوَيَيْنِ في الجزيرة العربية إلى حافَّة المواجهة، لحَرْفِ نظر الإمام يحيى عن الجزء الجنوبي المحتل لليمن إلى الحدود الشمالية له، وصرفه عن النظر نهائيا إلى عدن والمناطق المحتلة في الجنوب، والتي دوما يكرِّر الإمام يحيى ضرورة تحريرها من الاحتلال البريطاني. وهذا ما تجلَّى بوضوح في دفعها للإدريسي إلى الاحتماء بالسعوديين ليدفَعَهم نحو التصادم مع الإمام يحيى مباشرة.

وفي المقابل كانت الخصومة التاريخية بين أشراف الحجاز والنجديين قائمة، وكانت مسألة حدود نجد والحجاز هي القاصمة لظهر العلاقات الودية بين الحاكمَيْنِ الموالِيَيْنِ للإنجليز، ملك الحجاز وسلطان نجد، بالإضافة إلى الاختلاف المذهبي والخصومة التاريخية بين أسلافهما؛ لهذا تميَّزت علاقات الطرفين بالسوء، وقد رأينا كيف أمدَّ الشريف حسين ثوارَ عسير بالرجال والمال في مواجهتهم لابن سعود.

بيدَ أن الشريف حسين ملك الحجاز أخطأ في تقدير قوة خصمه النجدي عبد العزيز بن سعود؛ ولهذا تعرَّض جيشه للتمزيق والتبديد في وقعة (تُرَبة)، وبدأ منذئذ العدُّ العكسي لحكمه على الحجاز.

وكان على الدوام يحدو عبدَ العزيز بنَ سعود الشوقُ الدائمُ لاحتلال الجزيرة العربية مدَّعيا أنها أملاكُ آبائه وأجداده كما صرَّح بذلك لأمين الريحاني؛ ولهذا فقد جنّد كثيرا من بدو الوهابيين النجديين ممن سُمِّي بالإخوان في تلك الهِجَر المنعزلة عن العالم والموبوءة بأفكار التطرف والوحشية.

السلطان عبد العزيز – من خلال أذرعه العسكرية الوحشية، هِجَر الإخوان وتشكيلاتهم القتالية – أجاد صناعةَ الرعب، وإدارةَ التوحش، والحربَ النفسية، وبها استطاع إيصال رسائل نفسية جامحة إلى قلوب خصومه قبل أن يصلها بجيشه، وكان في الوقت نفسه

(79) سالم، سيد مصطفى: مراحل العلاقات اليمنية السعودية (1158-1353هـ/ 1754-1934م)، خلفية وحوارات تاريخية، ط1، 2003م، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص384.

(80) الوجيه، عبدالرحمن محمد حمود: عسير في النزاع السعودي اليمني، (د.ط) (د.ت)، ص128.

بارعا جدا في التمثيل والتظاهر بالسخط تجاه ما يرتكبه جيشه المدجَّج بعُقَد وعقائد الكراهية والتكفير والوحشية، ولم يمانِع من ذَرْفِ الدموع كلما استلزم الأمر، والتي كان يطير بها عشاقه ومريدوه لإظهاره كحمامةَ سلامٍ، لكن إصرارَه على استخدام هذه القوات الوهابية المتوحشة في كل مرة لاحقة[81]، وإخضاعَهم لأهم المناطق الاستراتيجية في الجزيرة العربية – دليلٌ على إجادته التمثيل وعلى تصنُّعه البارع.

يعلِّق أهالي بعض الشهداء أن من أسباب هذه المجزرة هو أن ابن سعود استجاب لطلب بريطانيا بضرورة تقديم إثبات جدّي يعبّر عن ولائه لهم، الإثبات الذي من شأنه أن يجلب دعم بريطانيا لحكمه؛ لهذا سارع ابن سعود بقتل الحجيج، وأرادت بريطانيا منه ذلك حتى لا يكون هناك خط رجعة لابن سعود، وهو تعليلٌ لا يبعد عن الصواب.

وبالعودة إلى أسباب مجزرة تنومة السياسية فإنه بحسب الرواية النجدية كان قد تسرَّب خبرُ مشروعِ اتفاقيةٍ بين الإمام يحيى والشريف حسين ملك الحجاز بالتصدي لابن سعود[82]، ومن بنود تلك الاتفاقية "التعاون والتناصر" بين الجانبين، ولكنه تعاونٌ مشروط بكونه "موقوفا على الطلب من أيِّ الجانبين عند الاحتياج واللزوم، وفي دائرة النصوص الشرعية"[83]، كما هو النص المقتَرح للاتفاقية التي لم تكن قد وُقِّعَتْ بعد، وكانت لا تزال مجردَ حِبر على ورق.

وصل ابنَ سعود نبأُ هذه الاتفاقية المزمع توقيعُها، فكان بحاجة ماسّة إلى فضِّ هذا الاتفاق الذي يلوح في الأفق بين اليمن والحجاز، بل وكان بحاجة إلى ضربه في الصميم نفسيا وواقعيا، وإيصال رسائلَ متعدِّدة الأهداف لكيِّ دماغِ حكام اليمن والحجاز في هذا الصدد.

لكنَّ السؤالَ المُهِمَّ: من الذي سرَّب مشروع هذه الاتفاقية، وهي التي ظلَّت طيَّ الكتمان، والتي أوصى الإمام يحيى بإبقائها سرية، ومن هو المستفيد من تسريب هذا الخبر، وما الذي يريد تحقيقه من أهداف؟ والذي يترجَّح أنه أحد جهتين:

إما الإنجليز هم من تولَّى إبلاغ ابن سعود ببنود هذه الاتفاقية المزمع توقيعها، وهو ما لمَّح إليه عرّاب هذه الاتفاقية أمين الريحاني عند لقائه بكاتبة أسرار المندوب السامي في الأمور الشرقية في العراق (جر ترود بل)[84] كما مر ذكره. أو الرحالة أمين الريحاني نفسه، الذي تدل على ذلك مؤشراتُ أنه أعجبه المقام في حضرة ابن سعود، وأنه أخلص له، وطالما أنشأ معلقات النثر في الثناء عليه.

الإنجليز الذين امتعضوا من الإمام يحيى وتهديداته المتكرِّرة بطردهم من عدن ومحمياتها التسع في الجنوب، ومن كونه الحاكم العربي الوحيد في الجزيرة العربية العصي على التطويع لسياساتهم الاستعمارية في المنطقة؛ كان لا بد أن يهيئوا الظرف الملائم لمعاقبته من خلال إقحامه في مشاكلَ مع جيرانه، وحرْفِ نظرِه بعيدا عن محمياتهم في ما سموه بـ(الجنوب العربي)، وكان المرشَّح للقيام بهذا الدور في تلك الفترة هو رجلهم المفضل عبد العزيز بن سعود.

(81) بكى بعد وقعة تربة، ثم كلف أولئك القادة وجيشهم لمهاجمة الطائف.
ينظر الريحاني: تاريخ نجد الحديث، ص257، 331.
(82) دلال، عبدالواحد محمد راغب: البيان في تاريخ جازان وعسير ونجران، ط1، 1418هـ/ 1998م، القاهرة، ج2، ص207-208.
(83) الريحاني: ملوك العرب، ج1، ص321.
(84) الريحاني: ملوك العرب، ج1، ص497.

حاول الرحالة نزيه مؤيد العظم أحدُ رجال العرب آنذاك التحريَ والبحث الدقيق في سبب هذا العدوان على حجاج اليمن، مع "أناس مسؤولين" "في اليمن، والحجاز، ونجد، ومصر، وبعد رحلة شاقة من البحث توصَّل إلى نتيجةٍ مفادُها "أن لبعض الأجانب ضلعا في هذه المؤامرة، وقد كانوا يتوخَّون منها إثارة الفتنة بين الملك عبد العزيز والإمام يحيى وامتداد الحرب من الحجاز إلى اليمن"، واستنتج أنهم ذكروا لابن سعود بأساليبَ شتى، وعن طرقٍ عديدة، وبواسطة أناسٍ كثيرين أن الملك حسين قد استنجد بالإمام يحيى للقتال معه ضده، فاعتذر الإمامُ عن الدخولِ في الحرب معه بشكلٍ علَني، ولكنه أوفد هذا الجمعَ الغفيرَ بصورةِ حجاج للتطوع في الجيش الحجازي، ويبدو أن ابن سعود قد "أخذ بهذه الدعاية الباطلة، وأمرَ جُندَه من الإخوان بأن يبيدوا هؤلاء الناس عن بكرة أبيهم"[85].

ويرجح الدكتور صالحية: "أن خبر المعاهدة التي تولى صياغتها أمين الريحاني مع الإمام يحيى ومستشاريه والتي لم توقَّع بعدُ قد وصلت أخبارُها إلى بلاد الملك عبدالعزيز بن سعود، إما من قبل عيونه، أو سرِّبت من قبل البريطانيين"[86].

إنه لمن الوجاهة بمكانٍ صحة هذا الاستنتاج الذي توصَّل إليه نزيه العظم ذلك الرحالة العربي بعد رحلة طويلة من البحث، وهذا الدكتور صالحية الباحث المتخصص في تاريخ العرب الحديث، بالإضافة إلى أنه استنتاجٌ يدعمُه سلوكُ الإنجليز الاستعماري وتاريخُهم المعروف في صناعة الفرقة والشتات في الشرق خدمة لأغراضهم الاستعمارية، كما يدعمه أيضا مقتضى الفكر التكفيري المتوحِّش الذي حمله الوهابيون في مملكة آل سعود.

وبهذا لم يكن هناك داعٍ لمحاولةِ تبرئة ساحة السلطان عبد العزيز من هذه الجريمة البشعة كما حاول البعض[87] لظروفٍ لاحقة اقتضتها المتغيّرات السياسية والاجتماعية، وهو أمرٌ يتناقض وهذا الاستنتاجَ هنا بوصول نبأ المعاهدة إلى ابن سعود.

2- دوافع وأسباب عقائدية

من المعروف أن الوهابية تكفِّر جميعَ المسلمين، وتعتبرُهم مُشركين وضالّين ومنحرفين ومبتدعين، ويمكن لأحدهم بأيّ تبريرٍ تافه أن يتجرَّأ على ارتكاب قتل المخالفِ له أيا كان ذلك المخالف.

إنها مدرسة نجد التي بها الفساد والزلازل والفتن، إنه التكفير الذي أنتج هذه الجماعات العنفية بدءا بالإخوانِ أهل الهِجَر، وانتهاء بالقاعدة وداعش في

(85) العظم: رحلة في العربية السعيدة، ج1، ص227-228.

(86) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج1، ص318. مقدمة المحقق الدكتور صالحية.

(87) على سبيل المثال، الدكتور محمد عيسى صالحية رحمه الله؛ إذ يقول مبرّئا ساحة الملك عبد العزيز من التلطخ بهذه الجريمة بتناقض عجيب: "فأقدمت جماعة من البدو على الإيقاع بالحجاج دون اختيار أحدٍ من أمراء قوات ابن سعود النظامية، ولكنهم يدرون عن ذلك، فحركة قوات بهذا العدد الكثيف لا يمكن أن تتم خفية ودون علم أحد"، ويواصل مبرّئا قادة ابن سعود من الجريمة: "ولا أعتقد أن أمراء القوات السعودية كانوا قادرين على منعهم، فالإخوان المقاتلة يرون أنفسهم بأنهم أصحابُ اليد الطولى في تحقيق الانتصارات التي حققتها قوات ابن سعود، وفضلهم لا ينكر!!، ورأيهم لا يقوى أحد على معارضته!!". ينظر: مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج1، ص318، مقدمة المحقق. ونحى هذا المنحى الأمير أحمد بن محمد بن الحسين حميد الدين، في كتابه القيم (الإمام الشهيد يحيى حميد الدين)، ج2، ص174؛ إذ يقول في كتابه: "ولم يصل الخبر للملك عبدالعزيز حتى تبرأ من هذه الجريمة، وتأسف عليها أسفا شديدا، ولم يُخْلِ الملك عبدالعزيز الإخوان من المسؤولية"، متبنيا رأي صاحب المنار، محمد رشيد رضا حول الموضوع.

عصرنا، وقد رأينا بأمِّ أعيننا هؤلاء التكفيريين وهم يقتُلون مخالفيهم بشكلٍ بشِعٍ وفظيع تفجيرا واغتيالا وحرقا وغرقا وبجميع الوسائل والأساليب التي لا تخطر إلا على بال الشيطان وأوليائه، وهاهم السعوديون في عدوانهم على اليمن يقتلون اليمنيين بطائراتهم وصواريخهم بشكل بشِعٍ وفظيعٍ وبتبريرات سخيفة.

إن الدافع والسبب العقائدي وهو تكفير مخالفيهم في الدين والمذهب والطائفة هو الباعث لهم على استباحة دماء مخالفيهم؛ وهذا ليس في أهل عصرنا منهم فقط، بل فيهم منذ أول يوم وُجِدَت فيه الوهابية، فـ"لقد قامت حركتُهم على أساسِ العنف الدموي، وتميَّزت بالشراسةِ والوحشية، فلم يكونوا يخضعون لقانونٍ أخلاقي أو ديني، فمِن قتلِ النساء والأطفال، إلى قطع رؤوس الأسرى، إلى الغدر ونقضِ العهود والمواثيق، إلى التقلُّبِ في المواقفِ وموالاة الأمم الغالبة"[88].

ولا يختلف هذا عن عددٍ كبيرٍ من المجازر التي ارتكبها الوهابيون في نجد والحجاز واليمن في ما مضى وفي عصرنا هذا، ومنها غزوهم عَرَبَ شرق الأردن، وكذلك غزوهم ضد أهل العراق، وقد تابعوا عليهم الغزو والقتل والنهب[89]. كل ذلك بسبب تكفيرهم للمسلمين الآخرين.

علَّل الرئيسُ الأسبق القاضي عبد الرحمن بن يحيى بن محمد الإرياني أن جنود ابن سعود قتلوا الحجاج في تنومة بسبب أنهم مشركون في نظرهم، وذكر أنهم كانوا يتنادون فيما بينهم قائلين: "اجتلوا المشرج"، أي اقتلوا المشرك[90].

وبعد المجزرة اعتذرَ السياسيون السعوديون بأن من ارتكب المجزرة هم فريقٌ من البدو يقال لهم (الغُطْغُط)، وتصفهم سيرة الإمام يحيى أنهم ممن يكفِّرون أهل القبلة[91]، وعند مراجعة هذا الاسم نجد أنه اسم هجرة قبيلة عُتيبة النجدية، والتي مرَّ ذكرها، وشاركت في السيطرة على الطائف ومكة وجدة والمدينة، وارتكَبَت فيها كثيرا من الفظائع والجرائم البشعة.

لقد فهم اليمنيون في حينها أن الدافع الباعث لهذه الجريمة هو الانحراف العقائدي والفكري عند هؤلاء الوهابيين بتكفيرهم للحجاج ولأهل القبلة، واعتقادِهم حلَّ دمائهم، كما كان عليه الخوارج من أهل النهروان؛ وهو الأمر الذي فاضت به قصائدُ ثلاثةٍ من أهمِّ رجالات ذلك العصر، وهم السيد العلامة يحيى بن علي الذاري (ت1364هـ)، والقاضي العلامة يحيى محمد الإرياني (ت1362هـ) والد الرئيس الأسبق القاضي عبد الرحمن الإرياني، والقاضي العلامة محمد بن أحمد الحجري (ت1280هـ)[92].

كما أن سببية التكفير هو الأمر الذي لمَّحت إليه الوثائق البريطانية حول ذات الموضوع حيث أوسعت الحديث عن تكفير الوهابيين للمسلمين وتشددهم في مسائل مختلفة[93].

3- دوافع وأسباب مادية

(88) الخطيب، محمد عوض: صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ص169.

(89) العاملي، محسن الأمين: كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبدالوهاب، ط2، 1428هـ/ 2007م، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم، ص50.

(90) الإرياني، يحيى بن محمد (ت1362هـ): هداية المستبصرين بشرح عدة الحصن الحصين، ط1397هـ/ 1977م، مطبعة العلم، دمشق، ص21- 22، مقدمة ولد المؤلف الرئيس الأسبق عبدالرحمن بن يحيى الإرياني، التي كتبها في عام 1976م.

(91) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص420.

(92) نصوصها كاملة في كتابي المنشور (مجزرة الحجاج الكبرى).

(93) صدرت الوثيقة في القاهرة 18 يوليو، 1923م، ونشرت في التايمز بتاريخ 19 يوليو، 1923م؛ ينظر: Ingrams, RECORDS OF YEMEN, 1798-1960, V6, b 694.

اعتاد الحجاج اليمنيون أن يَحمِلوا معهم البضائع والمنتَجَات المحلية لبيعها في موسم الحج، والانتفاع بمردودها المالي في مواجهة تكاليف الحج واستبدالها باحتياجاتهم من الملابس وغيرها من قديم الزمان[94].

وعليه فمن الوجاهة القول بأنَّ أحد أسباب القضاء على أولئك الحجاج وإبادتهم هو ما كانوا يحملونه من بضائعَ مُغرِية أسالتْ لعابَ أولئك التكفيرين الذين كان نوعُ تعبئتهم وتحشيدِهم هو ما غنموه خلال المعركة[95]، أما إذا اتَّحد هذا مع أسباب أخرى من قبيلِ تكفيرِهم لهم، وصدورِ قرارٍ سياسيٍّ بذلك؛ فإن تلك الأموال تصبح لديهم أحلَّ من شُرْبِ ماءِ زمزم.

توسَّعت جريدةُ القبلة المكية في الحديث عن مميّزات البُنِّ الذي كان الحجاج اليمنيون يحملونه معهم كل عام، حيث يحتفظ بجودته ونكهته الجميلة وذائقته الرفيعة، وهناك يتهافت عليه "وجهاءُ مكة والطائف" أكثرَ من غيرهم لشرائه؛ "لأنهم يجدون به لذة ورائحة زكية لا يجدونها فيما يأتي على طريق البحر حتى ولو كان من نفسِ قُرى أولئك الوفَّاد"[96].

وورد أنه كان لديهم من "المال والقُرَاش [الدوابّ] والبضاعة" فأخذ أولئك الوهابيون جميعه[97]، وتقول سيرة الإمام يحيى: إن الوهابيين استولوا "على جميع ما كان في أيديهم وأثقالهم ودوابهم"[98]، ولم تفُتْ هذه الإشارةُ الرحالةَ نزيهَ العظم لما قال: "وسلَبَ الإخوانُ جميعَ أمتعة هؤلاء الناس، وتركوهم ممدَّدين على الثرى وعادوا بغنائمهم فائزين منتصرين"[99].

ولما ذكرت الوثائق البريطانية غزوَ الوهابيين لعسير، واستيلاءَهم على أبها، وقتلَهم لبني شهر، قدّمَتْ ذكرَ خبرِ نهبِ الوهابيين لقافلةٍ عابرةٍ من الحجاج اليمنيين، على خبرِ قتلِ جميعِ أولئك الحجاج تقريبا[100].

وتذكُر سيرة الإمام يحيى أنه بعد المجزرة وبعد تنصُّلِ ابن سعود منها وصل المُرسَلون من قبَل الإمام يحيى إليه "ببعض المنهوبات من دوابَّ ومنقولاتٍ وبعضِ قيَمِ السمن"[101].

وهذه جميعها معلوماتٌ هامة تبيّن ما كان يحمله أولئك الحجاج معهم من بضائعَ وأموالٍ وممتلكاتٍ، بلغ تقديرُها بحسب البحث المفيد بحوالي (400000 ريال ماري تريزا)، (فرانسي)[102]، أي مبلغا كبيرا بقوة شرائية كبيرة، رقمٌ هائل من المؤكّد أنه شجّع أولئك المتلهّفين على غنائم الحجاج المشركين!! على الحكم بكفرهم وبضرورة قتلهم.

4- السبب العسكري

كان القوم حجاجا ويصطحب بعضُهم البضائعَ والمحاصيلَ بغية بيعها في مكة، وكان عددٌ قليلٌ جدا منهم مَنْ كان يحمِل سلاحا ناريا بدائيا لمدافعة اللصوص وقطاع الطرق، أي أنهم لم يكونوا في أية وضعية عسكرية استعدادا لأية معركة، ولهذا تصفهم

(94) ابن جبير، محمد بن أحمد، الكناني الأندلسي، (ت614هـ): رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ص98، 110.

(95) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج1، ص318، مقدمة المحقق الدكتور محمد عيسى صالحية.

(96) جريدة القبلة، العدد 703، ص1.

(97) مجهول: بحث مفيد، ق114/أ.

(98) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص420.

(99) رحلة في العربية السعيدة، ص228.

(100) Ingrams, Docreen, and Ingrams, Leila, RECORDS OF YEMEN, 1798-1960, V6 , b694.

(101) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص421.

(102) مجهول: بحث مفيد، ق114/ أ.

جميع المصادر بأنهم كانوا عزلا عن السلاح، فتصفهم سيرة الإمام يحيى بأن "أكثرهم عزل من السلاح"[103]، وهم آمنون لا يفكّرون في اعتداءِ أحدٍ عليهم، ولا يرغبون في قتالِ أحد"، وعند الأمين العاملي(104) بأن الحاج اليمني كان "أعزل من السلاح وجميع آلات الدفاع"، وأنهم لو كانوا مسلَّحين ما استطاع الوهابيون قتلَهم، ولكانوا أقصرَ باعا من ذلك[105].

إن هذه الحالة السلمية التي كان عليها الحجاج تبين أنهم لم يكونوا مستعدين لأية مواجهة عسكرية حتى في أدنى مستوياتها، ولم يخطر ذلك ببالِ أيٍّ منهم، لكن للأسف كانت حالتهم هذه سببًا من أسباب تجرُّؤ أولئك المتوحشين على الفتك بهم، وإبادتهم.

وبهذا العرض يتبين أن مكان المجزرة هو تنومة من بني شهر، وسدوان من بني الأسمر، وأنها وقعت وقت الظهر في 17 ذي القعدة 1341هـ الموافق 1 يوليو 1923م، وأن جملة من الأسباب السياسية والعقائدية والمادية والعسكرية كانت وراء الحادث، وأنها مجزرة دُبِّر أمرُها بليل مشؤوم.

المبحث الثالث: وقائع المجزرة

المطلب الأول: وقائع المجزرة .. مقاربة تأريخية

جرت عادة الحجاج اليمنيين أن تكون لهم قافلة واحدة، تحت إمرةِ أميرٍ واحد، وكان أحدُ عائلة السادة بيت الكبسي هو الذي يرأس قافلة الحجيج، واعتاد كثير من اليمنيين السفر إلى مكة عن طريق السلسلة الجبلية المجتازة لعسير إلى الحجاز.

كان أمير الحج يكلَّفُ في صنعاء، وقد حضرها الحجاج من المناطق التي تقع جنوبها، فتتحرك القافلة من صنعاء عادةً في 6 شوال أو في تاريخٍ مُقارِب، ولاشتهارِ مواعيدِ حركة الحجاج ومحطاتهم في الطريق ودقة مواقيتها، كان الحجاج من المناطق الواقعة بين صنعاء ومكة ينتظرون قدوم القافلة في تلك المواعيد المتواطئ عليها سلفا لينضموا إليها[106]، ولكونهم كانوا يذهبون مجتمعين لا يتفرَّقون كان يُطْلَق عليهم اسم (العصبة).

جديرٌ بالذكر أن النجديين لما استولوا على أجزاء من عسير، أرسل حاكم عسير عبدالعزيز بن إبراهيم، إلى الإمام يحيى كتبا تفيد باهتمامه بتأمينِ طريقِ الحجاج وتيسير مرورهم، وسفرِهم، بل وأنه لا خوف عليهم مما يجري في أطراف عسير، وقد علم الحجاج بذلك[107].

ومع ذلك فإن أمير الحج في ذلك العام السيد العلامة محمد بن عبدالله شرف الدين ما إن وصل إلى أطراف صعدة حتى بعث كتابا إلى حاكم أبها النجدي، الشيخ عبدالعزيز بن إبراهيم، مُستوضِحًا منه حالةَ طريقِ الحجاج، وإمكانَ اجتيازِهم فيها بأمان، من باب التثبُّت في الأمر، وإلا فالعلاقات بين الإمام وحاكم نجد "لا يُشَمُّ منها رائحة الإرادة لأي عدوان"، على حد قول سيرة الإمام يحيى[108].

وعاد الجواب عليهم مؤكِّدا ما سبق منه إلى الإمام من أنّ الطريقَ آمنة، وأن يكون سلوكُ الحجاج من الطريقِ المعتادة، وأنه لا يوجَد أيُّ مانعٍ من مرورهم

(103) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص420؛ والجرافي: المقتطف، ص245؛ والواسعي: تاريخ اليمن، ص264.
(104) كشف الارتياب، ص50.
(105) كشف الارتياب، ص50.
(106) جريدة القبلة، العدد 703، ص1.
(107) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص419.
(108) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص418.

منها، وأنه قد سبق منه البيان حول ذلك، "وهم واثقون باندفاع الأخطار في سلوكهم تلك الجادة"(109).

وكان الحجاج – عادة – يتمتعون بالاحترام والحرية والإكرام من قبل أهالي القرى والمدن التي يجتازونها، ويمرون عليها، وكان من يتعرَّض لهم من اللصوص وقطاع الطرق يعاقِبُهم أهالي تلك القرى والمناطق أشد العقوبة، ولو كان المتعرِّض من أبنائهم وإخوانهم[110].

بل أيضا وبمجرد وصول الحجاج اليمنيين ذلك العام إلى أطراف مناطق عسير المحتلة تلقاهم بعضُ النجديين "تلقي المسالمة"[111]، وعلى مشارف (أبها) أكرمهم حاكمُها عبدالعزيز بن إبراهيم، وأضافهم، ولم يحذِّرهم من شيءٍ، بحسب المصادر اليمنية.

ويبدو أن قرارَ تصفية الحجاج وصل بينما كانوا يجتازون الطريق بين أبها وتنومة، فهناك من الوقت ما يكفي في التواصل بين حاكم أبها النجدي، وأميرِه في الرياض عبدالعزيز بن سعود، وإذا كان قد وصل علم قدومهم إلى أطراف عسير منذ أيام، وهناك سيقضون أياما إلى (أبها)، ثم يحتاج مرورهم من أبها إلى تنومة الوقوف في عدد من المحطات ولعدد من الأيام أيضا[112]، فهذا يعني أنه كان هناك وقتٌ كافٍ للتواصل مع عبدالعزيز في الرياض وسؤالِه عن اللازم فِعْلُه تجاه حجاج يعتقدونهم "مقاتلين متنكرين في زي حجاج" على حد قول الاتهامات النجدية.

إن ابن سعود وحده هو الشخص الذي يمكنه اتخاذُ قرار بحجم تصفية حجاج بعدد كبير، وهو الشخص الذي عرفنا أنه: "كان يعتمد على الاستخبارات قبل الملاقاة، وقلَّما أغار على أرضٍ يجهلها، أو ليس له عين فيها، يبعث إليه بأخبارها، ويكثر من الاحتياط إذا همّ بالزحف، ويفترض في خصمه أضعاف ما هو فيه"[113]، على حد وصف مؤرِّخه الأستاذ الزركلي. وهو الآمر الناهي لجميعِ فِرَق جيشه، ومنها فرق هجر الإخوان الوهابيين.

ويترجَّح أن قرارَ إبادة الحجاج لم يكن ليُنَفَّذ في أبها؛ إذ كان السيناريو يَفْتَرِض أنه لا بدَّ من كمينٍ يتولَّى المهمة في منطقة مضطرِبة، ومن طرفٍ أشبه ما يكون بطرف ثالث يمكن تحميله المسؤولية التي تُخْلِي ابنَ سعود من طائلتها، على نحوٍ يحقِّق أهدافَه اللئيمة، وليكن الإخوانُ ذراعَه المتشددة ووجهَه القبيح المتوحِّش هم الأداة الوَسِخة والمشجَب الرديء الذي سيُحَمَّل المسؤولية.

ومن دون شك ففي أبها تم التعرُّف على عديدِ الحجاج وعتادهم، وأموالِهم وبضائعهم المغرية والمسيلة للعاب الغنيمة، وتم اكتشاف نقاط ضعفهم، وأفضل الطرق لإبادتهم، وتصوُّر الطريقة المثلى للتنصُّل عن المسؤولية بطريقةٍ تضيعُ دماء أولئك الأبرياء بشكلٍ شيطاني، يوفِّر لابن سعود إظهارَ نفسه ككلِّ مرة بمظهر الباكي الشاكي ذارفِ الدموع الحرَّى والثكلى، ولم يكن هناك أكفأ من تلك الكتائب المتوحِّشة التي صنعت الرعب في الجزيرة العربية لتحميلها هذا العملَ وهذه المسؤولية، ليصل خبرُ رُعبهم إلى اليمن وحاكمها وجنودها، فتتحقق الإفادة والأهدافُ المرجوة من وراء ذلك نجديا، وتتحقق الأهداف المرجوة أيضا إنجليزيا.

(109) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص419.

(110) جريدة القبلة، العدد 703، ص1.

(111) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص419.

(112) الأكوع، إسماعيل بن علي: دروب الحج طريق الحاج اليمني، منازل الحاج اليمني إلى مكة، ط1، 1433هـ/ 2012م، الجيل الجديد ناشرون، صنعاء، ص177.

(113) الزركلي: الوجيز، ص71.

تحرَّك الحجيج مجتازين مناطق كثيرة وصولا إلى أطراف بني الأسمر (سدوان)، وإلى حدود بني شهر في (تنومة)، فحطَّت القافلة الأولى والكبيرة في تنومة، والتي تبعد عن أبها حوالي 125 كيلو متر[114]، وحطَّت قافلتان في سدوان الأعلى وسدوان الأسفل، واللتين تبعُدان عن تنومة بحوالي 10 إلى 15 كيلو متر، إلى الجنوب الشرقي منها، وكان أميرُ الحاج في الفرقة الأخيرة التي نزلت في سدوان الأسفل[115].

كان اليوم هو الأحد 17 من ذي القعدة 1341هـ / 1 يوليو 1923م، في وقت الظهيرة، وقد حطَّت الفرق الثلاث لصناعةِ طعامِ الغداء ظهرا، وهم آمنون لا يدرون عما قد دُبِّرَ لهم بليلِ الشياطين، وما قد حيك لهم من مؤامرةِ إبادةٍ شاملةِ، وهم بلا سلاح، ولا تأهُّب، ولا شعورٍ لهم بشيء، ولما شدَّ بعضُهم أثقالَه بعد الغداء، وبعضهم كان لا يزال في حال الغداء، وبعضهم في حال الشد، إذا بجيشِ ابنِ سعود الكامن لهم قد أحاط بهم من كل الجهات، وإذا به يصليهم نارا، ويباشر بإطلاق النار إلى جباههم ورؤوسهم وصدورهم بشكل كثيف[116].

لقد أحاطوا بمن في تنومة وهي الفرقة الأكبر، وطلعوا عليهم من أعلى الوادي وأسفله وهم على خيولهم وإبلهم، وهجم المشاة عليهم من رؤوس الجبال، فتابعوا الرمي عليهم ببنادقهم من كل جهة، فاستُشْهِد معظمُ من كان بهذا الوادي من الحجاج، وقتِل أكثرُ دوابهم، وأُخِذَتْ أموالُهم، ولم يفِرَّ منهم إلا القليل[117].

وبمجرد شعور الحجاج ببدء الهجوم انطلقت حناجرهم بالتكبير والتهليل وتلاوة الآيات [118] لكن ذلك لم يزد القتلة إلا جرأة على القتل والإبادة.

حاول بعضُهم المدافعة بما أمكن، وكانت قلة قليلة جدا منهم لديها سلاحٌ ناري وذخيرة فقاتلوا به حتى كمُل ما معهم، فقُتلوا[119]، وكان بعض الحجاج ينتظر الموت لحظة بلحظة، وكانوا يقرأون سورة ياسين، ولكن كان رصاص جنود ابن سعود أسرع إلى أرواحهم منهم إلى إكمال تلاوة سورة ياسين[120].

بدأوا هجومهم عليهم برميهم بالبنادق من رؤوس الإكام، ثم نزلوا إليهم يقتلون مَنْ عرفوا أنه لا يزال حيا[121]، فكانوا يمرون من بين جثثهم، فمن أصابه عيارٌ ناري وبه رمَقٌ من حياة جاؤوا ليذبحوه أو يطعنوه بحادٍّ للتأكد من فراقه للحياة، وإجماعُ حديث الناجين بأنهم جميعا ممن غاصوا بين الدماء تظاهرا بالموت يدل على بشاعة سلوكِ هؤلاء مع الجرحى إجهازا وفتكا؛ فهذا السيد ضيف الله المهدي على سبيل

(114) بحسب ويكيبيديا، الموسوعة الحرة.

(115) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص419؛ والأكوع: هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج2، ص666؛ وقياس المسافة مأخوذ بمسطرة قوقل، التي لا تراعي المنحدرات والجبال والتعرجات على طبيعة الأرض، بما يعني أن المسافة على الأرض أكبر من ذلك القدر.

(116) مجهول: بحث مفيد، 114/ أ.

(117) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص420.

(118) من إفادة الأستاذ محمد صالح مبخوت النصرة، بتاريخ شوال 1439هـ.

(119) من إفادة السيد العلامة عبدالرحمن بن حمود الوشلي النائب الثاني لمفتي الجمهورية الأسبق، كتبها إلي بخطه الجميل، بتاريخ 14/ 8/ 1436هـ – الموافق 2/ 6/ 2015م، وقد سمع روايتها في أيام شبابه من السيد ضيف الله المهدي نفسه أحد الناجين من مذبحة تنومة، وعمر السيد العلامة الوشلي اليوم يقارب السبعين أطال الله عمره.

(120) منهم الحاج الطبيب حمادي بن سعد التركي، الذي وصل إلى قوله تعالى: (سلام قولا من رب رحيم)، فأصيب بطلق ناري في جبهته، كان بها استشهاده. من إفادة حفيد الشهيد عبدالله بن أحمد بن حمادي التركي، يرويها عن أبيه عن الحاج الأستاذ غالب الحرازي، أحد الناجين من المعركة ترجمة أرسل بها لي بتاريخ 18 سبتمبر 2015م.

(121) زبارة، محمد بن محمد بن يحيى (ت1380هـ): نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر، خ، بخط ولده السيد العلامة أحمد بن محمد زبارة رحمه الله، انتهى منه في 11 رمضان 1404هـ، (نسخة خطية في المركز الوطني للمعلومات)، ج3، ص346. ويلاحظ أن النسخة الخطية فيها معلومات كثيرة عن مجزرة تنومة، لم تحظ بالقبول عند ناشري المطبوعة.

المثال من محل العرينة عمار محافظة إب، أحد الناجين من هذه المذبحة، نجا؛ لأنه رمى بنفسه في مكان فيه دماءٌ كثيرة، وامتدَّ بينها كالميت[122].

رئيس اليمن الأسبق القاضي عبدالرحمن الإرياني ذكر أن مقاتلي ابن سعود كانوا يتنادون فيما بينهم بقولهم: (اجتلوا المشرج)، أي اقتلوا المشرك[123]، وسمع أحدُ الناجين من آل الذويد من مدينة صعدة وكان قد تظاهر بالموت بين الجثث، سمع أولئك النجديين وهم يطوفون بين القتلى، وأحد قادتهم يسأل جنوده: كم قتلتَ؟ فإذا قال: واحد، قال له: لك قصر في الجنة، وإذا قال له: اثنين، قال له: لك قصران، وهكذا كان يبشرهم بقصورٍ في الجنة بعددِ من قَتَلوا من حجاج بيت الله الحرام[124].

لقد حصل الباحث على وثيقة رسمية تثبت أن جنود ابن سعود كانوا قد أطلقوا النار على الحجاج ثم ذبحوا كثيرا منهم، وهذه الوثيقة هي عبارة عن حكمٍ ابتدائي صدر عن قاضي محكمة صنعاء الابتدائية، القاضي العلامة محمد بن يحيى اليماني اليدومي، وتمَّ التصديق عليه من محكمة الاستئناف الشرعية بصنعاء، والتي كان يرأسُها شيخُ الإسلام القاضي العلامة الحسين بن علي العمري، ومهورة بالختم المعروف لهذه المحكمة، وهي محفوظة عند الحاج محمد بن محمد بن محمد بن محمود الشامي، من أهالي صنعاء القديمة، وهو حفيد الشهيد في تنومة الحاج محمد محمود الشامي، الذي دارت الوثيقة حول قضيته، والحكم يستند في حيثياته على شهادة ناجِيَيْنِ اثنين من المجزرة، وهما حسين بن حسين مجلي من أهالي منطقة حاز من قبيلة همدان صنعاء، وراجح بن علي مثنى، من أهالي قرية عناقة، من بني بهلول، وكانا قد شهدا المذبحة، ونجيا من القتل فيها، وبالتالي فهما من شهود العيان، وشهادتها تكتسب الطابع الوثائقي، ثم شهدا أمام محكمة صنعاء أنهما رأيا الشهيد الحاج الشامي تعرض أولا للرمي في جهته اليسرى، ثم فُصِل رأسُه عن جسده بالسيف.

إن طواف جنود ابن سعود بين جثث القتلى ليس مستبعدا؛ بل كان ضروريا لقومٍ يتهافتون على القتل ثم الغنيمة التي كان بعضُها مخبوءا في أكمام وجيوب الحجاج، وعليه فلا بد من تفتيش الحجاج، فمن وجدوه جريحا قتلوه، ثم سلبوه، وبهذا يُمْكِنهم الجمع بين فضيلتي قتلِ أولئك الجرحى المشركين الآمِّين بيتَ الله الحرام!!، وأخْذِ ما بحوزتهم من غنائمَ حلالٍ!! براحة بال، وطمأنينة نفس.

أما قائدهم فهو (خالدُ بن جامع) أحدُ زعماء عتيبة بحسب جريدة القبلة وبحسب روايات الوهابيين أنفسهم(125)، وقد اشتبه على الأكوع حين قال: إنه (خالد بن لؤي)[126]، وكذلك على الرئيس الإرياني حين سماه (خالد بن محمد).

وبعد أن أبادوا الفرقة الكبيرة في تنومة عطفوا على الفرقتين في سدوان، وفعلوا بهما كما فعلوا بالأولى، إلا أن القتل في الأولى كان أوسع وأعظم[127]، وهذا يشير

(122) إفادة السيد العلامة عبدالرحمن الوشلي، رواية عن السيد ضيف الله المهدي.

(123) الإرياني: هداية المستبصرين، ص22، مقدمة المحقق.

(124) من إفادة الأخ محمد أحمد سهيل، من صعدة يرويها عن أبيه عن أحد الناجين من آل الذويد بصعدة.

(125) العدد 703، ص1.

(126) هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج1، ص76.

(127) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص420.

إلى أن الناجين كان أكثرهم من فرقتي سدوان، الفرقتين الأخريين، وأن عامل الوقت كان سببا من أسباب نجاة معظم الناجين منهم.

بيد أن الوهابيين النجديين لم يكفِهم ذلك، بل انطلقوا لمطاردة الهاربين فمن أدركوه قتلوه صبرا، ثم بعد ذلك استولوا على غنائم أولئك المشركين!! الحجاج!!، فاستولوا على كل ما كان في أيديهم وأثقالهم ودوابّهم[128]، من المال والقراش[129] والبضاعة[130]، وأخذوا جميع أمتعة أولئك الشهداء[131].

تظاهر كثير من الناجين بالموت، وانغمسوا بين الدماء، ويحكي السيد زبارة كيفية نجاة أمير الحج في المخطوط من كتابه نزهة النظر[132]، بأنه أظهر أنه مقتول، فلما جاء الليل مشى على رجليه، وترك جميعَ أدواته، إلا الثوب الذي فوقه، وواصل سفره إلى مكة. ويبدو أن ذلك الثوب لم يسلم من النهب كما هو مقتضى رواية السيد ضيف الله المهدي الآتية.

أما الذين طالتهم سكاكين دواعش ابن سعود وفصلت رؤوسهم عن أجسادهم من أولئك الشهداء فعددهم 900 شهيد، كما سيأتي ذلك.

ومع ذلك كله فإن مَنْ نجا منهم بعد تلك الأهوال تلقاهم أهل القرى القريبة من محل المجزرة، كما تقول سيرة الإمام يحيى، فسلبوهم ما بقي معهم من أموالٍ محمولة، "وسلبوا ما عليهم من الثياب"[133]، وبحسب رواية السيد ضيف الله المهدي أحد الناجين من المذبحة فإنهم لم يتركوا عليهم سوى السراويل، وأن جمعا من الحجاج من بينهم أميرُ الحج وصلوا إلى أحد المراكز الحكومية وليس عليهم إلا السراويل، وقد ترجَّح للباحث أن ذلك المركز هو مركز بارق في تهامة المحاذية لبني شهر من جهة الغرب، وهو مركزٌ كان حينها يخضع لحكم الشريف حسين ملك الحجاز، ومنه أبرق أمير الحج إلى شريف مكة.

وحين نتأمل القرى القريبة من محل الوقعة وبمراعاة أن الحجاج سيهربون في الاتجاهِ المعاكس لعدوهم المطارد لهم، فإنه يتضح أنها قرى تابعة لقبائل بني الأسمر والذين كانوا قد دخلوا تحت حكم ابن سعود.

ونهبُ الثياب بتلك الصورة المشينة سلوكٌ مفاجئ ومنافٍ لما كان يُفْتَرَض بأولئك القبائل من احترام الحجاج، وهو يشير إلى أن استباحة أموال وأعراض وأرواح الحجاج على ذلك النحو كان خلقا نجديا وسمة بدوية وهابية.

جدير بالذكر أن رجلَ خيرٍ – كما يروي السيد ضيف الله المهدي – في إحدى تلك القرى كان قد تكفل بستر بعض الحجاج الذين صادفوه، ومنهم السيد ضيف الله المهدي، فقطع فراشَه لهم، وصنع لهم عشاء، وأمَّنهم ليلتهم، وفي الصباح أرسلَ أولادَه لحمايتهم وإيصالهم إلى أحد المراكز الحكومية[134].

وهكذا يتبيَّن أنه كان على من نجا من تلك المذبحة أن يغادِر تلك الجبالَ المشؤومة – التي وطئتها أقدامُ أولئك المتوحِّشين وحطَّت فيها أخلاقهم الذميمة – إلى تهامة[135]، والتي كانت لا تزال صامدة في وجوههم، وهناك وجدوا الشريف راجح حاكم مركز بارق المحاذي لجبال تنومة، كما أوضحَتْ ذلك برقيةُ خطابٍ أبرق

(128) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص420.

(129) يعني البهائم، من الدواب والحمير، وما شاكلها.

(130) مجهول: بحث مفيد، ق114/ أ–ب.

(131) العظم، رحلة في العربية السعيدة، ص228.

(132) نزهة النظر – خ –، ج3، ص346. أما المطبوع فقد حذف ذلك منه.

(133) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص421؛ ومجهول: بحث مفيد، ق114/ ب.

(134) من إفادة السيد العلامة عبدالرحمن الوشلي، رواية عن السيد ضيف الله المهدي.

(135) مجهول: بحث مفيد، ق114/ ب.

بها أمير الحج السيد محمد بن عبدالله شرف الدين إلى الشريف حسين عند وصوله مدينة جدة[136].

جدير بالذكر أنه لما وصل الحجاج إلى تهامة قرَّر بعضهم مواصلة سفرهم نحو مكة عن طريق الساحل، لأداء فريضة الحج، وبعضهم عاد إلى اليمن(137)، وكان ضمن المصمِّمين على مواصلة مشوار الحج أمير الحج السيد العلامة محمد بن عبدالله شرف الدين، وتذكُرُ جريدةُ القبلة أنَّ عددَ أولئك الذين وصلوا معه من الناجين من المذبحة كانوا حوالي 150 حاجا[138].

إن تصميم بعض أولئك المنكوبين على الحج بعد تلقيهم تلك الأهوال دليلٌ على تمسُّك اليمنيين بهذه المشاعر المقدَّسة وتعظيمِهم لها إلى حدِّ التضحية بأرواحهم وأموالهم وتجاهُل وتناسي كلِّ ما أصابهم.

وجاء دور ابن سعود الذي حاله حال من يأكل مع الذئب ويبكي مع الراعي، ليذرِفَ الدموع، ويعطيَ لنفسه مكانا قصيًّا من تلك المجزرة، ويتبرأ من تلك الحادثة الشنعاء ذرا للرماد في العيون، وتنصلا من تحمل مسؤولية الجريمة الجنائية، وهو الذي كان قد وصل إلى هدفه السياسي والعسكري والعقائدي، ووصلت رسالته الشنعاء إلى كل يمني.

فبعد المجزرة مباشرة، أرسل حاكم أبها عبدالعزيز بن إبراهيم متبرئا من ذلك العمل القبيح، كما هو السيناريو المرسوم، وَنَسَبَهُ إلى أحد الأمراء النجديين، ثم جاء وفدٌ من أمير نجد ابنِ سعود يخبر بأنه أمر بإرجاع ما أُخِذ على الحجاج، وطلب من الإمام رُسُلا لقبضها، وما زالوا مصرين على "استنكارِهم لما حصل، وتنصُّلهم من تبعة ما جرى"، ونسبتهم ذلك إلى مقاتلي هجرة الغطغط الإخوانية، وأنهم باذلون للإنصاف[139].

وبالتأكيد ذرف ابن سعود دموع الحزن والأسى، تلك الدموع التي ذرفها في تربَة، وفي الطائف، وفي مكة، وهكذا هنا فقد "تأسف للحادث وكتب لسيادة الإمام يحيى كتابا رقيقا!! يظهر أسفه"، "وأمر حالا بجمع ما وُجِد من متاع"، "وردّه إلى سيادة الإمام يحيى"، وحمَّل الإخوانَ المسؤولية مع شيءٍ من التبريرِ لفعلتهم كما تصوِّر ذلك وثيقةٌ سعودية منشورة[140]، والتي ستأتي مناقشتها لاحقا.

وبالفعل فقد وصل رسلُ الإمام، ولكن ببعض المنهوبات من "دوابَّ ومنقولاتٍ وبعضِ قيَم السمن"[141]، وقد أخذ منهم ابن سعود صكا بذلك[142]، والتي بالتأكيد لم تكن تمثِّل شيئا من قيمة المنهوبات الحقيقية، وإنما كانت مجردَ تعبيرٍ سياسيٍّ وقِح يتظاهر بالإنكار والتبرُّؤ من المذبحة، وكان يراد منها أخذُ صكٍّ بيَّتَ النيةَ من خلاله على التنصل والاستدلال به مؤخرا بعد أن قضى وطره وولَغ كما يشاء في دماء اليمنيين، وكانت أيضا محاولة خبيثة للتنصُّل من

(136) حرر الخطاب بتاريخ 4 ذي الحجة 1341هـ، ونشرته جريدة القبلة المكية العدد 705، الخميس 5 ذي الحجة 1341هـ/ 19 يوليو 1923م، ص4.

(137) مجهول: بحث مفيد، ق114/ ب؛ وجريدة القبلة، العدد 705، ص4.

(138) جريدة القبلة، العدد 705، ص4.

(139) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص421. ويقارن مع ما ورد على لسان الحكومة النجدية في جريدة أم القرى بتاريخ رجب 1352هـ، ونشرته مجلة المنار، مج33، ص21، مقالة: ما بين الإمامين في جزيرة العرب.

(140) مجلة المنار، مج33، ص21، مقالة: ما بين الإمامين في جزيرة العرب

(141) مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج2، ص421.

(142) سالم: مراحل العلاقات اليمنية السعودية، ص448، نقلا عن وزارة الخارجية السعودية، بيان عن العلاقات، ص144.

الواجبات المعنوية والمادية المترتّبة على جرائمِ جيشِه بحقّ الحجاج وأموالهم.

المطلب الثاني: الرواية النجدية

تُثْبِتُ المصادرُ اليمنية والنجدية أن ابن سعود ما إن سمع بالمذبحة حتى بادر بإرسال وفدٍ يحمِل "كتاباً رقيقاً يُظْهِرُ فيه أسفَه لذلك الحادث"، ومثلُه أرسل حاكمُ أبها عبدالعزيز بن إبراهيم، بتحميل المسؤولية على أحد أمراء جيشهم، وبالتحديد على الإخوان الوهابيين من هجرة الغطغط كما تقدم.

هذا ما حدث في حينه، حيث رتَّب ابنُ سعود طرفا ثالثا يحمِّله المسؤولية، بما ينجيه منها، وقرَّر أن يذرف الدموع الثاكلة عليهم.

أما حينما تقدَّم به الوقت سنواتٍ إلى الأمام بعد وقوع المذبحة – وقد ظلَّت القضية معلَّقة لديه حيث ماطل في الحكم فيها وقد حكَّمه الإمام يحيى – فإن وجهة نظر النجديين يلخَّصها بيانٌ توضيحي، صدَرَ في جريدة أمِّ القرى، الصادرة في رجب 1352هـ / 1933م عندما بدأت غيومُ الحرب تتلبَّد بين نجد واليمن على خلفية أراضي عسير وجيزان ونجران، وردًّا على توضيحٍ منشورٍ لحكومة الإمام يحيى أرسله لبعض الجرائد العربية، وهذه الوِجهة النجدية تتلخص في التالي:

1–"أنه لم يكن إلى حدوث الحادثة بين جلالة الملك وبين سيادة الإمام يحيى أي صلات من التعاقد والتعاهد، ولا هناك أي مخابرة في سابلة أو مسير ...، والحادث وقع قبل أي مكاتبة أو استئذان في مرور هؤلاء".

2–وأن الحجاج مرُّوا بأبها والتقوا بالأمير عبدالعزيز بن إبراهيم. وأنه كان يعلم أنهم سيمرون من منطقة بني شهر (تنومة) في الوقت الذي كان يعلم أن فيها اشتباكات بين جيشه من جهة، وبني شهر المتمرِّدين عليهم من جهة ثانية.

3–وأنه خاف أن يحدُث على الحجاج حادث في ذلك الطريق فحذَّرهم ونصحهم بتجنُّب التقدم في تلك الطريق، لكنهم رفضوا وأصروا على المسير "معتزين بقوتهم وجمعيتهم".

4–وأنهم وصلوا وادي تنومة، وكانت خيالة ابن سعود في أسفل الوادي، والمشاة قد تسلَّقوا الجبال لاحتلال الأماكن المنيعة فيها.

5–وأنه وصل الخبرُ إلى الخيَّالة "أن جَمْعًا عظيما جاءكم من قبل الوادي لقتالكم"، "فأرسلت الخيالة للمشاة بالعودة من الجبال".

6–وأنه رغم وصول عددٍ كبير مثل ذلك العدد في تلك الساعة الرهيبة من ساعات الحرب وأنه يدعو للريبة ولعدم التساهل، ورغم شدة الإخوان وغلظتهم وقسوتهم، إلا أنهم أرسلوا خيالة لاستطلاع أولئك القادمين.

7–وأن ذلك الاستطلاع تأكَّد لديه أنهم عصبة الحجاج اليمنيين وأنهم يريدون المرور من تلك المنطقة.

8–لكن جيش ابن سعود فجأةً أمرهم بالعود إلى حيث أتوا، فأبى الحجاج، وصمَّموا على المسير، وقتالِ من يقاتلهم.

9–تضيف الرواية النجدية: "ثم ساروا بهيئة حربية، وحصل إطلاقُ بعضِ العيارات النارية منهم للإرهاب والمرور".

10–وتقول: فلم يكن من جند الإخوان إلا "أن قابلوا العدوان بأشدَّ منه، وكانت المعركة التي قُتِل فيها من قُتل"، وتتحاشى تلك الرواية أن تصف الحجاج بالشهداء.

11–وتذكر الرواية أن الإخوان كانوا يعتقدون أن هذه العصبة "لم تقدُم في تلك الساعة من اليمن إلا نصرة للملك حسين وتأييدا للعصاة".

12–وتذكر الرواية أنه بمجرد وصول الخبر إلى ابن سعود فقد تأسَّف للحادث أيَّ أسف، وكتب لسيادة الإمام يحيى كتابا رقيقا يظهر فيه أسفه للحادث، وأمر حالا بجمع جميع ما وجد من متاع للحجاج، ورده إلى الإمام يحيى.

13–وأنه لم يُخْلِ ابنُ سعود جيشَه "من المسؤولية رغم ما لديهم من شُبَهٍ، فجازاهم بعد ذلك الجزاءَ الذي يستحقون".

14–ويضيف المنشور استفهاما نصُّه: "فهل يرى ذو الحجى والعقل بأن على جلالة الملك أو على جنده تبعةَ شيءٍ من ذلك، بعد ما كان من نهيِ أميرِ (أبها) لهم عن المسير"، وبعد أن كان من الجند مَنْ منعهم عن التقدُّم، وعصيانِهم للفريقين، ثم لم يكن من الإمام يحيى طلبٌ سابقٌ يطلب الرخصة لهم".

15–ويختم المنشور بتساؤل هو: "فهل هناك عرفٌ دولي يقضي بمسؤولية حكومتنا في ذلك؟" ويجيب: "إنا نترك الحكم في ذلك لعلماء الإسلام، كما نتركه لعلماء الحقوق من الباحثين"[143].

ويضيف عبدالواحد دلال وهو مؤرِّخٌ يتبنَّى وِجهة نظر الحكومة النجدية:

16–أنه كان قد تداعى إلى الأسماع بينما كانت رحى الحرب مشتعلة أن هناك قوات أخرى بعثها إمامُ اليمن لمساعدة ابن عائض!!، بناء على مراسلة بينه وبين الشريف حسين للتصدي للملك عبدالعزيز، وأن حاكم عسير عبدالعزيز بن إبراهيم تفحَّصها ووجد أنهم حجاج، وسارع باستقبالهم على مشارف أبها، وأكرم وفادتهم.

17–وأنه بادر بإسداء النصح لرؤساء القافلة بأن يسلكوا طريقا أكثر أمنا حدَّده لهم، ودلَّهم عليه، ولكنهم لم يستمعوا إلى نصيحته. وأنه عندما لم يستمعوا لنصيحته أخذ منهم كتابة خطية بأن النجديين ليسوا مسؤولين عن أي خطرٍ يحيق بهم، أو شرٍّ ينالهم.

18– وأن بعضهم كان يحمل السلاح، ربما للحراسة، لكنه على أية حال يثير الشك لدى المقاتلين في الميدان.

19–وأكد أن المقاتلين (الإخوان) ظنوهم مددا لقوات الشريف حسين بموجَب المعاهَدة الموقعة[144] بينهم عام 1340هـ، فقاموا بتطويقهم وأصلوهم نارا.

20–ويذكر المؤرخ النجدي خلاصة اتهامهم للحجاج بأنهم "قوة تتخفَّى بلباس الحجيج، وعددُهم كبير، وأسلحتُهم ظاهرة، وشاهرة".

21–وختم المؤرخ النجدي بإهداره دمهم، حيث ذكر "أن المدنيين الذين يزُجُّون بأنفسهم في ميدان الحرب، أو ساحة القتال مهدورو الدم، خاصة إذا ما أُنْذِروا بالابتعاد عن ساحة المعركة"[145].

المطلب الثالث: مناقشة الدكتور الوجيه للرواية النجدية

اعترافا بالفضل والسبق للدكتور عبدالرحمن الوجيه – رحمه الله – فإنه لا بد من إيراد المناقشات التي ردَّ بها على الرواية النجدية، إذ يقول وما أصدق قوله: "لكن الأدلة والشواهد تُثبِت أن المجزرة لم تكن حادثا عرضيا لعددٍ من الأمور:

(143) مجلة المنار، مج33، ص20، مقالة: ما بين الإمامين في جزيرة العرب؛ نقلا عن جريدة أم القرى السعودية، أول رجب سنة 1352هـ.

(144) لم توقع المعاهدة، كما مر، وكانت لا تزال مشروعا لم يكتمل.

(145) دلال، عبدالواحد محمد راغب: مطالعات في المؤلفات التاريخية اليمنية (دراسة نقدية)، ط1، 1417هـ/ 1996م، القاهرة، ص48– 52؛ وينظر أيضا: دلال: البيان في تاريخ جازان وعسير ونجران، ص207– 208.

وذلك لأن التبريراتِ النجدية واهية، من حيث:

1- القول بأن الحجاج رفضوا الاستماع إلى نصيحة القائد السعودي، وأصروا على سلوكِ الطريقِ المحفوفِ بالمخاطر لا يقبله منطق عاقل .. سواء كانت قوات متنكرة أم حجاجا، فإن كانوا حجاجا فما مصلحتُهم وقد قاربوا على الوصول إلى مكة ... أن يرفضوا الطريقَ الآمن، وإذا كانوا قواتٍ متنكِّرة فما الفائدة التي سيجنونها من الإصرار على سلوك الطريق الخطِر.

2- إن القول بأن القائد السعودي أخذ تعهُّدا من قافلة الحجاج بأن الحكومة السعودية لا تتحمَّل أيةَ تبعة، إذا نزلت بهم نازلة - يدل على أن الأمر دُبِّر بليل، فلا يُعْقَل أن تكون الصلة منبتَّةً بين ذلك القائد وتلك القوات المرابطة في نفس المنطقة، إن ذلك القول يصدُق في حالة ما إذا كان الخطرُ المحدِقُ من جهةٍ غيرِ سعودية، أما أن يكون أخذ التعهد سعوديا والقاتل سعوديا، والمنطقة تحت الاحتلال السعودي فهو ما يؤكِّد أن العملية مدبَّرة ومخطَّطة.

وإذا كان القائد السعودي قد أكرم وفادة الحجاج كما يقولون فلِمَ لمْ يُرْسِل إلى القوات المرابطة في تنومة يُخْبِرُها بهُوِيَّة القافلة التي ستمر من ذلك الطريق خصوصا وأنه توقع الخطر[146].

3-والقول بأن القوات السعودية أطلقت النار على الحجاج ظنا منهم أنهم جاؤوا متنكِّرين بلباس الحج - عذرٌ أقبح من ذنب، فقد سبق أن قالوا: إن عاملهم في المنطقة قد التقى بالحجاج وأكرمهم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى هل الالتباس والظن يؤدي إلى إطلاق النار مباشرة، والقضاء على الآلاف دون شفقة أو رحمة ... ومن ناحية ثالثة فإن اختيار مكان الضحايا يدل على دقة التخطيط والتنفيذ، وعلى أنَّ لديهم معلومات مُسْبَقة عن خطِّ سَيْرِ الحجاج، ويدل على ما تميَّز به القتلة من وحشيةٍ وقسوةٍ ينفيان وقوعَ الحادث عن طريق الخطأ"[147].

المطلب الرابع: مناقشة إضافية للرواية النجدية

كما يلاحَظ على الرواية النجدية عددٌ من الملاحظات والمغالطات والتناقضات والتبريرات الفاضحة التي بعضُها لا تقل قبحا عن الذنبِ نفسِه، وبعضها متداخل مع ما ذكره الدكتور الوجيه رحمه الله.

1- فعلاوة على اختلاقِ كذبةِ عدم وجود أية علاقات بين الإمام يحيى وابن سعود أو حكامه، والتي تثبتها الرواية اليمنية، ويصدِّقها الواقع، وشواهد الحال، وأن عالِما وزعيما حصيفا كالإمام يحيى أو كأميرِ الحج وهو الذي كان منظَّما ومرتَّبًا في جميع أمور حياته[148]، وكذلك من معه من الأشراف والقضاة، لا يمكن أن يخاطروا بأرواحِ أعدادٍ كبيرة منهم بإصرارهم على سلوك طريقٍ غير آمنة، ومن غير مكاتبة، وقد مرَّ أنهم تلقَّوا تطمينات من ابن سعود وحاكمِه على (أبها)، بأمان الطريق، ودليل ذلك أنهم يعترفون باستقبال حاكم أبها لهم بحفاوة.

2- ثم منذ متى كان عدم وجود علاقات بين بلدين في ذلك الوقت، أو عدم طلب بلد من البلدان بالاستئذان في المرور - محلِّلا لدماءِ حجاج اعتادوا المرور من تلك الطريق عاما بعد عام، ولم يكونوا قد اعتادوا على إجراءات الجوازات؛ إذ لم تكن موجودة ولم يُتَعامَلْ بها بعدُ في البلدين.

(146) الوجيه: عسير في النزاع السعودي اليمني، ص125- 126.

(147) الوجيه: عسير في النزاع السعودي اليمني، ص126- 127. وقد ذكر في جملة الردود أن لباس الحجاج لثياب الإحرام ينفي الشك بأنهم مقاتلون. وهذا وهم من الدكتور رحمه الله؛ إذ لم يكن الحجاج قد وصلوا ميقات الإحرام، ولم يكونوا قد أحرموا بعد.

(148) زيارة: نزهة النظر -خ-، ج3، ص247.

3- ولماذا ظهر هذا الطلبُ فجأة في ذلك العام، ولماذا ظهرَتْ شكوكُ ابنِ سعود وجنودِه إزاءَ أولئك الحجاج في تلك السنة، التي تسرَّب فيها خبرُ المعاهدة بين الحجاز واليمن؟ لماذا لم يحدُثْ مثلُ ذلك الشك في حجاج عام 1340هـ أو 1339هـ؟ لا سيما وابن سعود كان قد سيطر على تلك المنطقة من عسير قبل تلك المرة؟ وفي ذلك العام كان الأمير فيصل بن عبدالعزيز قد جاء إلى هناك وبسط سيطرته على المنطقة، فلماذا لم يتم قتل أولئك أو حتى الاعتراض عليهم في الأعوام السابقة؟.

4- وهل عدم استئذان الجانبِ اليمني يحلِّل قتلهم على سبيل الإبادة رجالا ونساء؟ ثم وهل يحلل قتلهم بتلك الطريقة البشعة والشنيعة التي يقر بشيء منها منشورُ النجديين؟ بإطلاق النيران عليهم، ثم بالذبح والطعن لمن لا يزال به رمق من حياة، ثم بمطاردة الفارّين وملاحقتهم والحرص على إبادتهم؟! لماذا لم يكتفِ هؤلاء بكسر شوكتهم وتفريقهم وإرغامِهم على العودة؟ ولماذا أيضًا نهبوهم أموالهم وحتى ملابسهم وثيابهم؟.

5- ولماذا نصحهم حاكم أبها بسلوكِ طريق آخر بحسب الرواية النجدية، وهم يشكُّون أنهم جنودٌ متنكِّرون في زي الحجاج دعما للملك حسين؟ وأنهم بناء على ذلك سيصلون إلى مكة من خلال ذلك الطريق الآخر؟ أليس هذا يكشف تناقض الرواية النجدية وضعف تركيبها وأنها مركّبة لاحقا لتبرير الجريمة النجدية؟!.

6- ثم السؤال أين كان سيساعد هؤلاء المقاتلون المتنكِّرون رجالا ونساء ملك الحجاز بحسب ظنون النجديين؟ هل كانوا سيساعدونه في تنومة؟ أم في مكة؟ فإن كان في تنومة فكيف سمح لهم حاكم أبها بالمرور إلى تنومة ولم يوقِفْهم هناك، وإن كان في مكة فلماذا نصحهم بسلوكِ طريقٍ آخر أكثر أمنا سيوصلهم إلى مكة، وهو خلاف رغبة النجديين وما تتطلبه شكوكهم؟

7- وقولهم: إن المقاتلين أرسلوا مستطلِعين عن الحجاج، ثم إنهم اعتقدوا أنهم نجدة للملك حسين – قول متناقض جدًّا، فالمُسْتَطْلِع يُفْتَرَض به الجهل، فمن أين ظهر لهم هذا الاعتقاد بكونهم نجدة فجأة في ذلك الوقت، وليس هناك من أمارة ولا دليل على أنهم مقاتلون.

8- ولماذا تناقضَت نصائحُ عبدالعزيز بن إبراهيم التي تتمحور حول سلوك طريق آخر، مع أوامر جيشه من إخوان الغطغط والتي تأمرهم بالعودة إلى اليمن؟ وما هي النصيحة التي يتبناها الجانب النجدي الرسمي، هل هي أوامر حاكم أبها أم أوامر جيشه الوهابي في تنومة؟

9- وبالإضافة إلى ما ذكره الوجيه، فإنه لو صحّ ما ادعاه النجديون أن بحوزتهم كتابا خطيا من أمير الحج ورؤساء القوافل لأرسل به حاكمُ أبها عبدالعزيز بن إبراهيم أو حتى ابن سعود إلى الإمام يحيى، ولنَشَره السعوديون نصا وصورة في منشورات الوثائق السعودية اللاحقة؛ لأن في نشره حجة قاطعة لمنع التقولات بإلقاء التبعية على عساكر ابن سعود[149].

10- وتعترف الرواية النجدية متفقة مع الرواية اليمنية بأن جيش ابن سعود كان قد أمسك بعنان المنطقة وطوَّقها، وأنهم كانوا في حالة الاستعداد، فالمشاة في أعالي الجبال، والخيالة في أسفل الوادي،

(149) ينظر: مطهر: سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، ج1، ص318- 319، مقدمة المحقق الدكتور صالحية.

أي أنهم كانوا جاهزين في وضعِ الكمين المنتظِر لفريسته التي ينقضُّ عليها بلا رحمة ولا هوادة.

11- وهناك علامة استفهام كبيرة حول هُوِيَّة ذلك الذي أوصل الخبر إلى جيش ابن سعود في تنومة، وأبلغهم بأن "جمعا عظيما جاءكم من قبل الوادي لقتالكم"، هل هو حاكم عسير الذي أظهر للحجاج وجه البشاشة ونشَرَ حبالة المودة، ثم أوقع بهم؟ أم هو رسولٌ خاص من قبل ابن سعود نفسه؟ أم هو رسول من جهة أخرى غير معروفة؟ ومن هو المستفيد من هذا الخبر؟ وما الذي كان يريد الوصول إليه؟ ولماذا وثق في قوله أولئك المقاتلون وتيقّنوا صدقه؟ هل لأنه رسول من جهة يثقون بها؟!

12- وتقول الرواية النجدية: إن جيش ابن سعود طلب من الحجاج العودة وليس سلوكَ طريق آمِن كما هو طلب حاكم أبها، والواقع أنهم مجرد جيش مأمور، ليس عليه أن يأمُرَ مثلَ هذه الأوامر، وينفِّذَها بالقوة، بينما مَنْ هو الآمرُ ومَنْ له حق تنفيذ الأوامر بالقوة – وهو عبدالعزيز بن إبراهيم – لم يفعل ذلك، ولم يستخدِم قوته لمنعهم من سلوك ذلك الطريق ولا حتى سلميا؟ فلماذا كان هذا؟

13- تعترف الرواية النجدية أن الإخوان الوهابيين كانوا قد تعرَّفوا بشكل دقيق على جماعة الحجاج ورأوهم عن كثب وتحاوروا معهم، أي أنهم رأوا ما يحملونه من سلاح، ومال، وهو أمر لا يتفق مع تكتيكات الإخوان القتالية التي تعرفنا عليها سابقا والتي لا تترك للخصم فرصة للتفكير وللدفاع عن نفسه، وتهجم عليه كنسيج متوحِّش، وهذا التكتيك يتفق تماما مع الرواية اليمنية للحادثة.

14- وإن تعجبْ فمن تلك الكلمة السخيفة التي وردت في منشور النجديين، والتي تقول: "وساروا بهيئة حربية"، "وأن جيشهم قابل العدوان بعدوان أشد"، فلا ندري كيف كانت تلك الهيئة وأي نوع من المشية كانت؟ وما الأهازيج والزوامل التي ردَّدوها حينها؟ وكيف كانت طريقة عرض النساء منهم والعجزة وكبار السن؟ وبأي سلاح كان يتسلَّح جمهورُهم رجالا ونساء؟ وما العدوان الذي نفذوه؟ وقولهم هذا يناقض الثابت قطعا أنهم باشروا قتلهم وهم في حال الغداء، وبعضهم في حال شد رواحلهم، وبعضهم كان قد انتهى من ذلك.

15- ولماذا لم يشكَّ حاكمُ أبها في كونهم مَددا، ولا حتى مجرد الشك، ثم لماذا لم يحاول منعهم بالقوة، وهو الحاكم الذي بيده المعلومات والتوجيهات؟ بينما تيقَّن جيشه الوهابيون يقينا خوَّلهم إبادتهم عن بكرة أبيهم، لماذا تيقَّنوا أنهم مقاتلون؟ ثم لماذا نجد ابن سعود وبسرعةِ لمحِ البصر يتيقَّن هو الآخر بعد إبادتهم، – وبشكل مفاجئ وهو القابع في الرياض – كمالَ اليقين أنهم بالفعل حجاج، وليسوا بمقاتلين، ولكن جنوده ظنوهم كذلك؟! ولهذا أرسل سريعا بخطابٍ رقيق إلى الإمام وأمر بإرجاع ما بقي من متاعٍ لهم؟ فهل كان مجردُ موتهم وإبادتهم هو الفارق الذي جعل جيش ابن سعود يظنهم مقاتلين، بينما جعله يتيقَّن أنهم حجاج؟! من الذي وزع الشك واليقين على هذه الجهات الثلاث بشكل مدبّر وبسرعة غير عادية؟!.

16- ولماذا وقد عرف ابنُ سعود مظلوميتَهم ظلَّ يماطل في الحكم، وقد حكَّمه الإمام يحيى، فتنصَّل ذلك التنصُّل الوقِح من أيةِ تبعةٍ عليه وعلى جنوده إزاء الضحايا وأموالهم وذويهم، أليس ذلك أمرا يتناقض كلية مع اعتذارِه وخطابِه الرقيق، ومع ما زعمه المنشور بأنه "لم يُخْلِ الإخوان من المسؤولية"، وأنه "بعد ذلك جازاهم الجزاء الذي يستحقون"؟!

17- ويترجح أن هذا الفصيل بذاته من الوهابيين الإخوان كانوا جزءا من جيش الأمير فيصل بن عبدالعزيز الذي قدِم عسير لإنهاء ثورة ابن عائض ومكث شهورا في ذلك العام قبل عودته إلى الرياض[150]، وذكر الريحاني أن عدد جيش فيصل في تلك الغزوة كان مؤلَّفا من ستة آلاف من الإخوان، وأربعة آلاف من عرب قحطان وزهران[151]، أي أنهم كانوا منظَّمين ولهم قيادة وتسلسل إداري يتصل بابن سعود.

18- ويقصُدُ المنشورُ السعودي بقوله: "وجازاهم بعد ذلك بالجزاء الذي يستحقون"، أن ابن سعود تصادم مع الإخوان وقادتِهم في معركة السبلة عام 1929م، وقتل بعض زعمائهم، واستسلم له بعضهم، ولكن الحقيقة أن فرقة من الإخوان واحدة وهي الغطغط هي التي ارتكبت هذه الجريمة فلماذا عمَّ كلَّ فرق الإخوان وفصائلهم بهذا الجزاء؟ ولماذا سامح من استسلم من الغطغط وأبقاه حيا وأكرم مثواه؟ ومنهم ماجد بن خثيلة الذي كان أهم مساعدي حاكم الغطغط سلطان بن بجاد العتيبي؟ ثم لم ينقل أنه في تلك الأحداث عاب عليهم فعلتهم في اليمنيين بأي شكل من الأشكال، ولم تطرح عليهم هذه القضية باعتبارها جرما يستحقون به العقوبة أبدا؟ ثم كيف صحى ضميره بعد حوالي ست سنوات ليجازيهم ثم عاد فيما بعد ليبرِّر لهم فعلتهم وجريمتهم من جيشه بعد القضاء عليهم، ومن لا يزال يتنصل من أي تبعة تلزمه وتلزمهم؟ ولماذا لم يصْحُ ضميره بناء على ذلك بتعويض أولئك الضحايا ودفع دياتهم ورد ممتلكاتهم المنهوبة؟

19- لقد حاول ذلك المنشور النجدي تبرير قتلهم بأنهم خالفوا أوامرَ ونصائحَ حاكمه على عسير وجنده في تنومة، وأنهم ساروا بطريقة حربية، فمنذ متى كان جزاء المخالف القتل؟ ومنذ متى علَّمهم الإسلام أن يبدأوا بقتالِ من لا يقاتلهم؟ وهل كان حرصهم على إبادة جميع الحجاج جزاء وفاقا على تلك المخالفة؟ وهل كان التذفيف على الجريح أمرا طبيعيا في الإسلام؟ وهل كانت مطاردة الناجين منهم وقتلهم أمرا طبيعيا أيضا؟ ألم يكن الحصار والمنع كافيا؟ ثم ألم يكن كسرُ شوكتهم بقتلِ وأسرِ المسلَّحين منهم أو كبارِهم كافيا؟ فلماذا طاردوا الناجين وذفَّفوا على الجرحى؟ وحرصوا على إبادة الجميع رجالا ونساء؟.

20- ثم لماذا قتلوا النساءَ والعجَزة والذين لا يُنْتَظَرُ منهم أيُّ مدَدٍ ولا أي غناء للملك الحجازي ابن عون؟

21- ولماذا لم يَخَفْ هذا الجندُ الوهابي غائلة تصرُّفِه المتسرِّع بقتل هذا العدد الضخم من المشكوك بأمرهم؟ لماذا لم يخافوا من قتلِ مسافرين قادمين من مناطق هم يعلمون حق العلم أنها تخضع لحاكم عسير، وأن أيَّ قادم منها لا بد أن يكون مأمون الجانب لا يشكِّل أية خطورة على صاحبها وجيشه ؟ بل من كانوا في سدوان لا زالوا في أراضٍ خاضعة لحكم ابن سعود؟ كيف لا يخافون من حاكمهم أنهم قتلوا مسافرين مروا من عنده؟!

22- وإذا كانت الفرقة التي وصلت إلى تنومة هي الفرقة التي طالتها نيران النجديين؛ لأنها وصلت في مناطق الاشتباكات فما عذرُهم في مَنْ لا يزالون في

(150) آل زلفة، محمد بن عبدالله: عسير في عهد الملك عبدالعزيز، ط1، 1415هـ/ 1995م، الرياض، ص50،51، 60.

(151) الريحاني: تاريخ نجد الحديث، ص302.

مناطق بني الأسمر في سدوان والتي كانت آمنة وأهلها من الموالين لابن سعود؟!

23- وقد دلت الروايةُ النجدية أن ابن سعود اعتبر قتلهم كضرطة عنز في فلاة من الأرض، فلا هو الذي ردَّ أموالهم وممتلكاتِهم كاملة، ولا هو الذي أصدر حكمه وقد حكَّمه الإمام يحيى؟ ولا هو الذي ودَى الضحايا بأية ديات، وهذا المنشور أكَّد أنه لم يدفع دية أي شهيد منهم، وقد أكده الإمام أيضا في رسالة لتلك الجريدة وغيرها، والذي أيضا أكَّده أحد رجالات اليمن، وابن أحد شهداء تنومة، وهو القاضي الحسين بن أحمد السياغي؛ إذ يقول في ترجمة والده وأنه استُشْهد مع آخرين: "واستفتح الملك عبدالعزيز بقتلهم الحجاز، وباء بدمائهم وأموالهم ولم يتخلص منهم إلى أن توفي"[152].

وهو أمر يرد على أولئك الذين أشاعوا أنه أنصف الشهداء ودفع دياتهم ومنهم الأمير أحمد بن محمد بن الحسين حميد الدين[153].

24- وأخيرا هل مرور عدد ضخمٍ مثل ذلك العدد أيامًا ولياليَ في أراضٍ يسيطر عليها ابن سعود، وهو يشك أنهم مدد، يمكن أن يكون بدونِ علمِ ابنِ سعود، ثم اتخاذ قرارٍ بتصفيتهم على ذلك النحو يكون أيضا بدون علمه؟!

المطلب الخامس: ابن سعود هو العقل المدبّر للمجزرة

إن تناقضات الرواية النجدية واضطرابَها وهشاشة تركيبها ومغالطتها للحقائق التاريخية ومعارضتها للمنطق تشي بأن وراء الأكمة ما وراءها، بل إن الظروف والأسباب والطريقة التي نُفِّذت بها المذبحة تُرجِّح أن عبدالعزيز بن سعود نفسَه كان المسؤولَ الأول عنها، وأنه هو الذي اتخذ القرار بإبادتهم؛ لعدد من الأمور:

1- لما ذكره الدكتور الوجيه من قرائنَ وأحوالٍ تبرهنُ أن الحادث مدبَّرٌ مخطَّطٌ له، ولما سبق ذكره من قرائنَ وأحوالٍ تؤدِّي إلى ذلك.

2- لأنه هو الذي تسرَّب إليه خبرُ المعاهدة التي يفتَرض أنها من أسباب القيام بتلك المجزرة، وبكون الرجل كان مشهورا باليقظة المتوحِّشة، وانطلاقا من مفهوم الحزم النجدي الذي رأيناه اليوم في أبنائه وأحفاده، فإنه يقتضي قيامَه بسفكِ دماءِ المشكوك فيهم، بل وحتى الأبرياء تنكيلا بمن عداهم، وكسرا لإرادتهم، وصناعةً للرعب في قلوبهم.

3- لم يحدُث أن تعرَّض النجديون للحجاج اليمنيين قبل ذلك العام، وقد مرُّوا في نفس الطريق، وبهذا يتبيَّن أن هناك قرارا بتصفيتهم اتُّخِذ في ذلك العام بعد تسرُّبِ خبرِ الاتفاقية، وهو القرار الذي طبيعته وحجْمُ أثره وخطورة تداعياته تَفْتَرِض أن يُتَّخَذ في أعلى سلطةِ قرارٍ نجدية.

4- إن مرور القافلة حوالي 12 يوما[154] في منطقة عسير التي كان يسيطر عليها النجديون، بل وحوالي 6

(152) قواعد المذهب الزيدي، ص22 (الهامش).

(153) الإمام الشهيد يحيى حميد الدين، ج2، ص174.

(154) عدّد القاضي الأكوع في كتابه دروب الحج، ص177، 178، محطات وقرى طريق الحاج، فبلغت من ظهران اليمن جنوبا حتى تنومة شمالا حوالي 19 محطة، وبلغت مراحلها حوالي 12 مرحلة، وقال القاضي العلامة الجرافي، أحمد بن أحمد بن محمد (ت بعد1397هـ)، في تعليقة عن المجزرة، كتبها بتاريخ محرم 1342هـ على حامية كتابه ديوان المتنبي، موجود في مكتبة مركز بدر العلمي، وهو والد مفتي الجمهورية السابق القاضي العلامة محمد بن أحمد الجرافي، قال: إن تنومة على قدر أحد عشر يوما من صعدة، وإذا عُرِفَ أن الحاج اليمني يقطع مسافة طولها حوالي 1189كم، من صنعاء إلى مكة

أيام من أبها إلى تنومة، يبين أن هناك وقتا كافيا للتواصل بين حاكم عسير وأميرِه في نجد، ولاستشارته حول فعل اللازم، واستقبال توجيهاته وترتيب وإخراج مؤامرة كبيرة بحجم تلك المذبحة الهائلة، علما أن الاتصالات البرقية كانت متيسرة في مدينة أبها وبشكل يومي.

5-يترجَّحُ جدا أن حاكم عسير رفَعَ تقريرا بحالة الحجاج وعددِهم ووضعيتِهم عند مرورهم بأبها إلى أميره في نجد، وأنه استشاره في فعل ما يلزم، لا سيما مع تسرُّبِ خبرِ المعاهدة التي لم تكن قد رأتِ النورَ بعد، ومع ادعاءات اليمنيين بأحقيتهم في عسير، وطموح النجديين في تملُّك الجزيرة العربية، واعتمادهم على استراتيجية صناعة الرعب في قلوب خصومهم، الرعب السابق لأية معركة معهم، ويمكن أن يحقق قتل هذه القافلة بتلك الطريقة الوحشية ذلك الهدف المنشود لهم.

إنه سلوكٌ ينسجم مع السلوك الوهابي النجدي العام في مناطق أخرى من الجزيرة العربية وفي الشام والعراق، وهو أنسب سفارة لنقل الرعب إلى قلوب اليمنيين، ولكن خوفا من الفضيحة أمام الرأي العام العربي والإسلامي والعالمي فقد اقتضت الترتيباتُ إظهارَ حاكم أبها الاحترامَ للحجاج، وضيافتهم، حتى إذا ما وصلوا إلى منطقة الاشتباكات أرسلوا لإخوانهم الوهابيين هناك بالتوجيه بقتل أولئك المسلمين المشركين!! على حد زعمهم وأن لهم ما في أيديهم من الأموال.

6-ولا يبعُد أن يصرَّح لأولئك التكفيريين الوهابيين بأن أولئك الحجاج مددٌ متنكِّر للملك الحجازي الشريف حسين ابن عون، وأكد ذلك قول الرواية النجدية أن هناك من أوصل الخبر إلى مقاتلي الإخوان بأن جيشا عظيما قدِم لقتالكم، وهذه اليد الخفية التي أوصلت ذلك الخبر ووثِق في قولها المقاتلون الوهابيون لا بد أن تكون يدا قريبة من أمير نجد، أو من حاكم عسير، وإلا فإنهم لن يثقوا في قولها، وزعمها، وبهذه الترتيبات يمكن لملك نجد أن ينفِّذ فعلته البشعة ويحقِّق أهدافه وفي الظاهر أنه كان بعيدا عنها.

7- إن ما نقلته جريدة المنار عن جريدة أم القرى حول المنشور النجدي الذي يبرِّر الجريمة في المجمل، ويحاول أن يلقي باللائمة على الحجاج، وهو نوع من تبرئة الجلاد وتحميل المسؤولية على الضحية، مع تردُّدٍ واضطراب، فلا هو الذي حمَّل جنده المسؤولية، وتحمَّل تبعات ذلك، ولا هو الذي حمَّل الحجاج المسؤولية بشكل سافر، إن ذلك يشير إلى إرادة التغطية على الفاعل الذي لا يريدون إظهاره؛ لأنه كان حريصًا على التخفي والتنكُّر، وليس هو إلا عبدالعزيز بن سعود.

8-إنّ ترك الحجاج في العراء من غير دفنٍ ولا تَكرِمة، وتعاملَهم معهم كأنهم كفار مشركون، لا حرمة لهم، وحتى عندما اعتذر ابن سعود، فلم يُنْقَل من أحدٍ أنه هو أو حاكمه على أبها أعار أدنى اهتمام أو بذل أية عناية بالجثث، وبدفنها، ومواراتها الثرى، وقد ذكر الشعراء اليمنيون[155] أنهم تركوهم ممدّدين على الثرى للسباع والطير تأكلهم، وكذلك عدم وجود مقبرة معروفة حتى اليوم لهؤلاء الضحايا مع هول تلك

المكرمة، خلال شهرين كما ذكرت ذلك جريدة القبلة المكية، فإن المسافة التي اجتازها الحاج اليمني في أراضي عسير المحتلة حتى تنومة تقدر بـ268 كم، وهذا يفترض أنهم بالفعل احتاجوا لما يقارب 13 يوما ونصف يوم، وهو رقم مقارب جدا لما ذكره القاضي الأكوع.

(155) ينظر فصل المجزرة والأدب اليمني في كتابي (مجزرة الحجاج الكبرى).

المجزرة وكثرة ضحاياها، وبشاعة فعلها – دليلٌ على ذلك الإهمال المتعمَّد، كل ذلك دليل على أن الجريمة كانت مبيَّتة ومدبَّرة، وأن هؤلاء الحجاج كانوا ضحية استهداف سياسي حقير، واستبيحوا لأسبابٍ عقائدية تكفرهم وتستبيح دماءهم وأموالهم، وتدل على أن عبدالعزيز نفسَه لم يستطع حبْكَ مسرحيته كاملة، فقد ترك ثغراتٍ فيها شاهدة على تعمُّده إزهاق أرواحهم، وأن خطابَه الرقيق واعتذارَه لا ينبئ عن واقعٍ حقٍّ، ولا عن اعتقادٍ حقيقيٍّ بندمٍ نفسي، بقدر ما يعبِّر عن النفاق، وذرِّ الرماد على العيون.

9–ورغم تحكيم الإمام يحيى لابن سعود فإنه ظلَّ متنصِّلا عن إصدارِ أيِّ حكم، وعن تحمُّل أية تبعة، حتى بعد أن تفجَّر النفط في بلاده، وابتلاهم الله بالمال الكثير، لم تسخُ نفوسُهم أن يعوِّضوا أسر الضحايا بما يلزمهم. وهو أمرٌ يؤكد أن ابن سعود ظلَّ مصرًّا على جريمته مدافعا عنها بأفعاله، وأنه لم يكن نادما يوما على ما ارتكبت يداه.

10– كشفَتْ طريقةُ سرد الرواية النجدية – وما اشتملت عليه من ادَّعاءِ أخذِ التعهُّد الخطِّي من الحُجَّاج – عن أمرٍ يراد تدبيره بليل، وعن جريمة بيَّت لها المعتدون سيناريوها معقَّدا، يلقي باللوم على طرف آخر، أو على الضحية أكثر من الجزار، ودلت تناقضاتُها الكثيرةُ وهشاشة تركيبها على أنها رواية لم تعبِّر عن الواقع الفعلي، وأن ارتكاب مذبحة بحق حجاج أبرياء مسافرين، وبذلك العدد الكبير منهم، وعلى ذلك النحو البشع والفظيع، أمرٌ لا يمكن حدوثه، واتخاذ القرار فيه من قائدٍ ميداني، أو من حاكم محلي، أو من فرقة جيش مرابطة، وليس منطقيا أن يتولى أمره حاكم أبها بمفرده، بل لا بد أن يصدُرَ به قرارٌ من أعلى سلطة في نجد، وربما بقرار دولي، أي من ولية أمر ابن سعود آنذاك وهي بريطانيا.

11– لهذه القرائن والأمارات أرجِّحُ ذلك الاتجاه الذي يُلقي بتبعة الحادث على أمير نجد، وأنه "تم بناء على أوامرَ صريحةٍ من قبل ابن سعود"، وإذا كانت الوشاية الأجنبية قد حصلت فعلا فإنها "لا تنفي المسؤولية عن آل سعود، بل تثبتها، فقد كان بإمكان ابن سعود أن يأمر قواتِه بمحاصرة الحجاج وأسْرِهم أو حتى منعِهم من الوصول إلى مكة المكرمة بدلا من الإجهاز عليهم"[156].

وهذا يدل على أن تصفيتهم وليس فقط إعاقة وصولهم إلى مكة، كان هدفا استراتيجيا لابن سعود من الناحية السياسية والدينية والعسكرية، يرادُ به كسرُ الروح المعنوية لدى اليمنيين المتحمِّسين لاستعادة عسير، والتمهيدُ لغزو اليمن بصناعة حكايةِ رعبٍ شديدة، وإلقاءِ الرعب أولا في قلوب أبنائه، كما هي استراتيجية الوهابية منذ نشأتها، ومضت وتمضي عليها اليوم نسخُها المعاصرة من القاعدة وداعش.

12–وبهذا استطاع ابن سعود تحقيق أهدافه السياسية وأشبع رغبة مقاتليه المتوحشين في ما يعتقدونه جهادا ضد المشركين في الجزيرة العربية، وقد عادوا محمَّلين بالغنائم الوفيرة، والأجور الغزيرة!!، كما انتقم لحليفته بريطانيا من عدوِّها اللدود العصي على التطويع الإمام يحيى وشعبه في اليمن، ونالت مرادها في حرْفِ نظرِ الإمام عن جنوب اليمن إلى الحدود الشمالية وإلى العدو المتربِّص هناك.

13– ترجَّح هذا الأمر أيضا للرحالة الحصيف نزيه العظم، بعد أن حاول التحري عن السبب في مختلف الجهات والبلاد، وبعد الاتصال بالمسؤولين وغير

(156) الوجيه: عسير في النزاع السعودي اليمني، ص127.

المسؤولين في اليمن ونجد والحجاز والشام ومصر[157]. والعظم لا يتحامل على ابن سعود، ولا يبدو منه أيُّ عداء تجاهه، بل كانت علاقته معه طيبة ويظهر احترامه له وتقديره، كما يعرف ذلك من اطّلع على كتابه (رحلة في العربية السعيدة).

14–ثم ليست هذه الحادثة ببدعة في تاريخ ابن سعود والوهابية النجدية، وليست بدعا أيضا في الحوادث التي تنصَّل ابن سعود عن المسؤولية فيها، وألقى باللوم فيها على جيشه، كما ليست فظاعتها تتطلب عدم رضائه بها، فتاريخ الإخوان الوهابيين وأسلافِهم وخلفِهم وحتى معاصرينا اليوم كلُّه فظاعاتٌ وقتلٌ وتوحُّشٌ بادعاءاتٍ كاذبةٍ وملفَّقةٍ ومزيَّفةٍ، وإذا أرادوا تحقيقَ هدفٍ فكثيرا ما يحرّكون أدواتهم التكفيرية بأصابعهم من خلف الستار تقتل وتفتك وتدمّر وترتكب ما لا يخطر على بال أحد من الفظائع؛ لكي يمكنَهم التبرؤ إذا استدعى الأمر ذلك، مع قبولهم المطلق بالنتائج والفوائد التي تحققها جرائم تلك الجماعات، وما دعمُهم وصناعتُهم مع الأمريكان لهذه الحركات التكفيرية العنفية اليوم والقبول بأدوارها والقيام بدعمها وتشجيعها في اليمن وسوريا وليبيا ومن قبل في أفغانستان والعراق وغيرهما إلا دليل على ذلك التاريخ المشين.

15–ومع ذلك كله فكون هذا الجيش الإخواني الوهابي أحدَ أذرعته القبيحة والمتوحشة، وأنه أحد تشكيلات جيشه، واعترافه في منشوره أنهم جنوده، فإن هذا أمرٌ يجعل ابن سعود مسؤولا مسؤولية كاملة عما ارتكبه جيشه من جرائم، باعتباره القائد الأعلى لذلك الجيش، حتى ولو لم يصدر منه أمر بقتالهم أو قتلهم، وبالتالي فاعترافه بخطئهم، والاعتذارُ بكتاب رقيق يستلزم منه محاكمة القتلة، ودفع ديات المقتولين، والتعويض عن أموالهم وخسائرهم المادية والمعنوية.

ومن خلال هذا العرض يظهر من وقائع المجزرة جذورُ وسلوكات داعش الوحشية، وأنها مجزرة دُبِّرَتْ بليلٍ مشؤوم، وأن عبدالعزيز بن سعود هو العقل المدبِّر لارتكابها.

الخاتمة: أبرز النتائج والتوصيات

بعد التطواف في هذه البحث يمكن القول إن هذا البحث أسهم في جمع شتات الروايات المتناثرة، وتوثيق شهادات وآثارٍ كانت في طريقها إلى الضياع، وتحليل دوافع المجزرة ونتائجها بقدرٍ كاف من الاستقراء والمقارنة، وهذه نتائج البحث وتوصياته.

أولًا: أبرز النتائج

1–ثبت من خلال الروايات والقرائن التاريخية أنّ المجزرة كانت فعلًا مقصودًا ومرسومًا، وليس «سوء فهم» ولا «خطأ اجتهاديًا»، بل عملية قتل جماعي نُفّذت وفق إرادة سياسية واضحة وتصور عقدي تكفيري.

2–تبيّن أن عبدالعزيز بن سعود يتحمل المسؤولية الأولى عن المجزرة من حيث التخطيط أو التفويض أو الموافقة الضمنية، وأنّ محاولات التنصل عبر إلقاء اللوم على طرف ثالث هم الإخوان لم يكن إلا غطاءً سياسيًا.

3–أثبتت الوثائق والتحقيقات أنّ الرواية النجدية الرسمية كانت روايةً دعائية مضلِّلة، صيغت لتبرئة القيادة السعودية، بينما دلّت الوقائع على التناقضات البينة فيها.

4–اتضح أن الدافع العقدي الوهابي كان حاضرًا في استباحة دماء الحجاج اليمنيين، وأنه جزء من بنية التفكير التي تشرعن القتل والغنيمة وإبادة "المخالف المذهبي".

(157) العظم: رحلة في العربية السعيدة، ص227– 228.

5-كشفت المجزرة عن الدور البريطاني غير المباشر في هندسة التوازنات السياسية في الجزيرة العربية، بما يخدم تأسيس النظام السعودي العميل آنذاك.

6-أبرز البحث الصلة العضوية بين الوهابية التاريخية والحركات التكفيرية المعاصرة (داعش، القاعدة وغيرها)، وأن جذور السلوك الدموي لهذه الحركات يمكن رصدها بوضوح في مجزرة الحجاج اليمنيين في تنومة وسدوان.

7-أظهرت الدراسة أن الوعي اليمني بالمجزرة كان مغيَّبًا عمدًا خلال عقود من الحكم السابق، وأن عدم تضمينها في المناهج والتاريخ الوطني أضعف الذاكرة الجمعية.

8-برهنت نتائج البحث على أن مجزرة تنومة كانت نقطة تحول في مسار العلاقات اليمنية-السعودية، وأن آثارها النفسية والسياسية والثقافية ما تزال حاضرة حتى اليوم.

9-أسهم البحث في إعادة بناء رصيد معرفي حول الشهداء والناجين، بما يمهّد لإنشاء قاعدة بيانات وطنية عن هذا الحدث المفصلي.

10-أثبتت الدراسة ضرورة قراءة المجزرة في إطار مشروع الهيمنة السعودي وليس كحدث منفصل؛ فهي جزء من سياسة ممتدة من العدوان والتوسع وفرض الوصاية.

11-أثبت البحث أن عدد شهداء هذه المجزرة يفوق 3000 شهيد، وأن من ذبحتهم سكاكين الإخوان الوهابيين في هذه المجزرة كانوا حوالي 900 شهيد، ينتمون لمختلف فئات وأماكن اليمن، وأنه لم ينج من قافلة الحجاج إلا من تظاهر بالموت وانغمس بين الدماء، أو أمكنه الفرار عند بداية الهجوم، وهم حوالي 500 شخص، منهم 150 شخصا بقيادة أمير الحج صمَّموا على مواصلة السفر للحج في ذلك العام عن طريق تهامة، وعاد البقية إلى اليمن.

ثانيا: التوصيات

1-ضرورة إدراج مجزرة تنومة وسدوان في المناهج اليمنية ضمن التاريخ الوطني والهوية الجامعة، بما يرسخ الوعي بالأحداث المؤسّسة للذاكرة اليمنية.

2-استكمال البحث عن تداعيات هذه المجزرة ومواقف العالم الإسلامي منها وآثارها على علاقة اليمن والسعودية في التاريخ المعاصر وعلى الأدب اليمني.

3-إنشاء قاعدة بيانات وطنية رسمية تضم أسماء الشهداء وتراجمهم، وتوثيق شهادات الناجين وأحفادهم قبل اندثارها نهائيًا.

4-تشجيع البحوث الأكاديمية المستقبلية على دراسة الوثائق البريطانية والعثمانية والمراسلات الدبلوماسية لفهم أعمق لخلفيات المجزرة.

5-إطلاق مشروع أرشفة رقمية شامل يجمع كل ما يتعلق بمسارات الحج اليمني إلى مكة، ووقائع الاعتداءات عبر التاريخ.

6-تطوير دراسات مقارنة بين مجزرة تنومة ومجازر الوهابيين الأخرى في الجزيرة العربية لفهم النسق الفكري والسلوكي الموحد.

7-تعزيز الوعي اليمني بخطورة المشروع الوهابي عبر برامج توعوية وإعلامية وثقافية، والتمييز بين الإسلام المحمدي الأصيل وبين التشوه الوهابي التكفيري.

8-التعامل السياسي الواعي مع النظام السعودي بناءً على قراءة تاريخية عميقة تُدرك طبيعة الكيان وخلفيته العدوانية.

9-دعوة الجهات المعنية لإقامة نصب تذكاري لشهداء المجزرة كجزء من حفظ الذاكرة الوطنية.

10-فتح الملف تاريخيًا وقانونيًا وإحياء المطالبة اليمنية بالاعتراف الرسمي بالجريمة وتعويض أسر الشهداء.

11-الاستفادة من مخرجات البحث في بناء سياسات ثقافية وتربوية تعزز الاستقلال الفكري والهوية الوطنية بعيدًا عن تأثيرات القوى المعادية.

المصادر والمراجع

[١] 1-الإرياني، يحيى بن محمد (ت1362هـ): هداية المستبصرين بشرح عدة الحصن الحصين، ط1397هـ/ 1977م، مطبعة العلم، دمشق، مقدمة ولد المؤلف الرئيس الأسبق عبدالرحمن بن يحيى الإرياني، التي كتبها في عام 1976م.

[٢] 2-الأكوع، إسماعيل بن علي: دروب الحج طريق الحاج اليمني، منازل الحاج اليمني إلى مكة، ط1، 1433هـ/ 2012م، الجيل الجديد ناشرون، صنعاء.

[٣] 3-الأكوع، إسماعيل بن علي: هجر العلم ومعاقله في اليمن، ط1، 1416هـ/ 1995م، دار الفكر المعاصر، بيروت.

[٤] 4-ابن جبير، محمد بن أحمد الأندلسي، (ت614هـ): رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت.

[٥] 5-الجرافي، أحمد بن أحمد بن محمد (ت بعد1397هـ): تعليقة عن المجزرة، كتبها بتاريخ محرم 1342هـ على حامية كتاب ديوان المتنبي، موجود في مكتبة مركز بدر العلمي.

[٦] 6-الجرافي، عبدالله عبدالكريم: المقتطف من تاريخ اليمن، ط2، 1984م، مؤسسة دار الكتاب الحديث.

[٧] 7-جريدة القبلة، العدد 703، 27 ذي القعدة 1341هـ/ 12 يوليو، 1923م، والعدد 705، الخميس 5 ذي الحجة 1341هـ/ 19 يوليو 1923م.

[٨] 8-حبيب، جون: إسهام الإخوان في توحيد المملكة العربية السعودية، ترجمة عبدالله بن مصلح النفيعي، ط1996م.

[٩] 9-الخطيب، محمد عوض: صفحات من تاريخ الجزيرة العربية الحديث، مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

[١٠] 10-دلال، عبدالواحد محمد راغب: البيان في تاريخ جازان وعسير ونجران، ط1، 1418هـ/ 1998م، القاهرة.

[١١] 11-دلال، عبدالواحد محمد راغب: مطالعات في المؤلفات التاريخية اليمنية (دراسة نقدية)، ط1، 1417هـ/ 1996م، القاهرة.

[١٢] 12-الريحاني، أمين: تاريخ نجد الحديث، ط6، 1988م، دار الجيل، بيروت تاريخ نجد الحديث.

[١٣] 13-الريحاني، أمين: ملوك العرب، ط8، 1987م، دار الجيل، بيروت.

[١٤] 14-زبارة، محمد بن محمد بن يحيى (ت1380هـ): نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر، ج3، بخط ولده السيد العلامة أحمد بن محمد زبارة رحمه الله، انتهى منه في 11 رمضان، 1404هـ، ج4، انتهى من رقمها في شوال، 1404هـ (نسخة خطية في المركز الوطني للمعلومات).

[١٥] 15-زبارة، محمد بن محمد بن يحيى (ت1380هـ): نزهة النظر في رجال القرن الرابع عشر، ط1، 1431هـ/2010م، مكتبة الإرشاد، صنعاء.

[١٦] 16-الزركلي، خير الدين: الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز، ط5، 1988م، دار العلم للملايين-بيروت.

[١٧] 17-آل زلفة، محمد بن عبدالله: عسير في عهد الملك عبدالعزيز، ط1، 1415هـ/ 1995م، الرياض.

[١٨] 18-سالم، سيد مصطفى: تكوين اليمن الحديث، اليمن والإمام يحيى، ط4، 1993م، القاهرة، دار الأمين.

[١٩] 19-سالم، سيد مصطفى: مراحل العلاقات اليمنية السعودية (1158-1353هـ/ 1754-1934م)، خلفية وحوارات تاريخية، ط1، 2003م، مكتبة مدبولي، القاهرة.

[٢٠] 20-سهيل، محمد أحمد: من صعدة، إفادة أرسل بها لي في عام 2014م.

[٢١] 21-السياغي، الحسين بن أحمد (ت1410هـ): أصول المذهب الزيدي اليمني وقواعده، ط1403هـ.

[٢٢] 22-شرف الدين، أحمد حسين: اليمن عبر التاريخ، ط2، 1384هـ/ 1964م، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة.

[٢٣] 23-شرف الدين، محمد بن عبدالله (ت1393هـ): تعليقة على كتاب تاريخ اليمن للواسعي، موجود في مكتبة ولده السيد عبدالخالق شرف الدين.

[٢٤] 24-الشماحي، عبدالله عبدالوهاب: اليمن الإنسان والحضارة، ط3، 1406هـ - 1985م، منشورات المدينة، بيروت.

[٢٥] 25-صفوة، نجدة فتحي: الجزيرة العربية في الوثائق البريطانية، ط1، 2007م، دار الساقي - بيروت.

[٢٦] 26-العاملي، محسن الأمين: كشف الارتياب في أتباع محمد بن عبدالوهاب، ط2، 1428هـ/ 2007م، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي.

[٢٧] 27-العرشي، حسين بن أحمد (ت1329هـ): بلوغ المرام شرح مسك الختام في من تولى ملك اليمن من ملك وإمام، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، والكتاب ابتدأ تأليفه القاضي العرشي، ووصل فيه إلى حوادث عام 1900م، ثم أكمل حوادثه الأب أنستاس الكرملي وانتهى فيه إلى عام 1358هـ، الموافق 1939م.

[٢٨] 28-العظم، نزيه مؤيد: رحلة في العربية السعيدة، ط2، 1407هـ/ 1986م، منشورات المدينة، بيروت.

[٢٩] 30-مجلة المنار، مج33، العدد 7، شعبان 1352هـ/ نوفمبر 1933م؛ و مج34، العدد1، محرم، 1353هـ/ مايو 1934م؛ ومج34، العدد2، صفر 1353هـ/ يونيو 1934م؛ ومج34، العدد 9، ذو الحجة 1353هـ/ إبريل 1935م.

[٣٠] 31-مجهول، (لعله للعلامة يحيى بن علي الذاري): بحث مفيد، ضمن مجموع فيه رسائل وأشعار العلامة يحيى بن علي

الذاري، موجود في دار المخطوطات اليمنية، برقم3021.

[٣١] 32-مطهر، عبد الكريم بن أحمد (ت1366هـ): سيرة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين، المسماة كتيبة الحكمة من سيرة إمام الأمة، تحقيق محمد عيسى صالحية، ط1، 1418هـ/ 1998م، دار البشير – عمَّان.

[٣٢] 33-المؤيدي، مجد الدين بن محمد: التحف شرح الزلف، ط1، 1414هـ/1994م، مؤسسة أهل البيت للرعاية الاجتماعية، صنعاء.

[٣٣] 34-الهاجري، يوسف: السعودية تبتلع اليمن، ط1، 2988م، لندن.

[٣٤] 35-الواسعي، عبد الواسع بن يحيى (ت1379هـ): تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن، ط1346هـ، المطبعة السلفية، القاهرة.

[٣٥] 36-الوجيه، عبدالرحمن محمد حمود: عسير في النزاع السعودي اليمني، (د.ط، د.ت).

[36] 37-Ingrams, Docreen, and Ingrams, Leila, RECORDS OF YEMEN, 1798-1960, VOLUME 6, 1914-1923, E 1993.